مُغْتَصَبَةٌ ولكن

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ـ ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٢٨٤٧

بطاقة فهرسة

الشرقاوي، هدى

مُغْتَصَبَةٌ ولكن: رواية/ هدى الشرقاوي ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

١٦٨ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٤-١٩٨-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

مُغْتَصَبَةٌ ولكن

هدى الشرقاوي

الفصل الأول

تعالَى صوتُ عفاف موبِّخة بناتها لتكاسلهنَّ، وعدم الإسراع بالامتثال لأوامرها:

– هيا يا بنات .. أسرعن بالانتهاء من أعمالكنَّ المنزلية بسرعة، فقد أوشك أبوكنَّ على الحضور من الحقل.

ردَّت صفية الابنة الصغرى مُمتعِضة:

– تمهَّلي يا أمي .. ما هي إلا دقائق قليلة وينتهي المسلسل.

كتمت الأمُّ غضبَها، وأخذت تُدير عينيها بين بناتها الثلاث وهُنَّ شاردات، كأنهنَّ غائبات عن الوعي، وكان هذا عهدها بهنَّ عند متابعتهنَّ لهذا المسلسل التركي الذي استحوذ على اهتمام بناتها الثلاث، ولم يصبح لهن شاغل إلا هذا المسلسل، والحديث عنه، وعن أبطاله ليل نهار، وكانت أمُّهنَّ تستشيط غيظًا لتباطؤهنَّ عن إنجاز أعمالهنَّ المنزلية، وكانت عفاف قد قسَّمت أعمال المنزل بين بناتها الثلاث بالتناوُب منذ بدء الإجازة الصيفية؛ حرصًا منها أن يكنَّ

ربَّات بيوت ناجحات مستقبلًا، ومن ناحية أخرى لتزيح عن كاهلها وطأة بعض الأعباء المنزلية خلال فصل الصيف.

طالَ انتظار الأمِّ، ولم يستجب لندائها أحدٌ، فما كان منها إلا أن أغلقت التلفاز وهي تقول لهم ساخطة:

– ألا تعلمن أن جارتنا الجديدة عروس محمد نجل الحاج سالم جارنا تصغركنَّ، وقد تزوجت الأسبوع الماضي، وقد حضرتُنَّ حفل زفافها بالفعل!

ردَّت هناء مستنكرة حديث أمِّها:

– نعم يا أمي، نعلم أنها ما زالت صغيرة، فهي تقريبًا في عمر صفية أو تكبُرها قليلًا.. ولكن هذا لا يمكن تسميته زواجًا.

ارتفع حاجبا الأم في دهشةٍ وهي تسأل ابنتها:

– ماذا تسمينه إذًا يا فيلسوفة الأسرة؟

ردَّت هناء بثقة:

– ليس زواجًا يا أمي بأي حال من الأحوال، فالعروس ما تزال طفلةً، ولذلك لم يتمكنوا من توثيق عقد زواجها، وتحايَلوا على ذلك بالزواج العرفي، وستظلُّ مُعلَّقة بين السماء والأرض حتى تبلغ الثمانية عشر ربيعًا.

الأم غير عابئة بحديث ابنتها الوسطى وهي تقول مُلوِّحة بيدها:

– كفاكِ هُراءً؛ فتلك عاداتنا هنا، فزواج الفتاة لا بد منه إذا جاء العريس المناسب الذي ترتضيه أسرتها .. فلا شيء عندنا أفضل من الزواج لستر

البنات في هذا الزمن الغادر .. وليس كلُّ رجال القرية مثل أبيكن يُدلِّل ويُلاطِف.

ارتفع صوت صفية وهي تركل الأرض بقدمِها في غضبٍ عارمٍ، وتستحثُّ أمَّها لكي تفتح التلفاز ثانية:

– أرجوكِ يا أمي، دعيكِ من سيرة محمد وعروسه عتاب، ودعينا نُكمل الحلقة، وسنفعل لك كل ما تريدين.

رَفَضَت الأمُّ أن تستجيب لرغبتهنَّ، ونظرت إلى ابنتها الكبرى لترى ردَّ فِعلها، فما كان من زهرة إلا أن عبست وقطَّبت حاجبيها، فزاد ذلك وجهُها احمرارًا ووهجًا، ولكنها لم تنبسّ بكلمة.

وثبت صفية متأففةً تضرب الأرض بقدميها الصغيرتين مُعبِّرةً عن غضبِها وتذمُّرها، وقد أوشكت على البكاء وهي تقول:

– أرجوكِ يا أمي .. افتحي التلفاز؛ فقد أوشكَ المسلسل على الانتهاء.

نهضت هناء من مكانِها، وحاولت تقبيل خَدِّ أمِّها وهي تتوسَّل إليها قائلة:

– دعينا نرَ المشهد الأخير يا أمَّاه .. أتوسَّل إليكِ، وسننهض في الحال.

رَقَّ قلبُ عفاف لحال بناتها، وفتحت التلفاز ثانيةً ليقينها أن المسلسل بالفعل قد أوشك على الانتهاء. فهلَّلت صفية وهناء وهما تُقبِّلان والدتهما لمكافئتها لإذعانها لهما، أمَّا زهرة فابتسمت ابتسامة رقيقة، وواصلت المُشاهَدة وهي مُستغرقة في عالمٍ خاصٍّ بها وحدها.

كانت زهرة قد أنهت تعليمها المتوسِّط منذ عامين، وفضَّلت التعليم المتوسط رغم حصولها على درجاتٍ مرتفعة في المرحلة الإعدادية؛ لأنها لم تكن تْهوَى المذاكرة والسفر، وتميل إلى الدّعة ورغد العيش، خِلافًا لأختها هناء التي أصرَّت على الالتحاق بالمدرسة الثانوية، وتستعدُّ الآن لخوض معركة الثانوية العامة بعد شهور قليلة.

كانت زهرة الابنة الكبرى أكثرهنَّ رهفًا ورقَّةً وجمالًا، فقد حباها الله جسدًا غزاليًّا مرمريًّا ممشوقًا منحوتًا ببراعةٍ ربانيةٍ، وتناسُقٍ بديع، يُزيِّنُه خِصر رشيق، يُزيِّنُه نهدان بارزان كأنهما في حالة نفور واستنفار دائمة.

يعلو هذا الجسد المرمري وجه ملائكي مستدير أبيض نقي، لا تشوبه إلا حمرة مُستحبَّة، وتوَّج هذا الوجه شَعر ناعم طويل كثيف شديد السواد كقطعة فحمٍ زادها الاحتراقُ حُسنًا وبهاء.

رأتْ زهرة في بطل مسلسل "حب أعمى" التركي صورةً جميلةً مُجسَّدة لحمًا ودمًا لما تتمنَّى أن يكون عليه زوجُها المستقبليُّ مِن وسامةٍ مُفرِطةٍ، ورجولةٍ متأججةٍ، ورومانسيةٍ حالمةٍ مُلتهبةٍ لا تبرد جذوتها أبدًا.

لم يكد المسلسل ينتهي حتى انصرفت الفتياتُ مُسرعاتٍ لتلبية نداءات الأمِّ، فأسرعت زهرة لتعدَّ طعام العشاء قبل قدوم الأب من الحقل، وذهبت هناء تملأ زجاجات المياه الفارغة وتُعيدها إلا الثلاجة؛ لتشرب منها هي وأخواتها، وبعد ذلك تملأ القِلل القناوية من الزير الموجود في إحدى زوايا المنزل وتضعها في الصينية الألومنيوم الخاصة بها، ثم تضعها على شرفة المنزل

التي تطل على حديقته، حيث لا ترتوي جدتهن ولا أبيهنَّ إلا إذا شربا من مياه القلل المملوءة من الزير.

أما صفية البنت الصغرى طالبة الإعدادية، فكان عليها أن تصعد إلى سطح المنزل، وتُدخِل الطيور إلى أعشاشها، وتغلق عليهم بإحكام حتى لا تتمكن منها العِرس.

كان لزهرة مِن اسمها نصيب كبير، وحظٌّ وافر؛ فقد كانت بهيةً كزهرةٍ برِّيَّةٍ تعشق الورود والزهور والعطور، وتهوى زراعة شُجيرات الورود، والفل، والياسمين، والرياحين، وكانت تبتاع الكثير من الكُتب التي تتحدَّث عن الزهور والنباتات، وطُرق زراعتها، والعناية بها، وتُتابِع البرامج التليفزيونية التي تتحدث عن النباتات والزهور، ونظرًا لأن دارهم كانت تقع على أطراف القرية قُرب الأراضي الزراعية؛ فكان أمامها قطعة فضاء كبيرة استغلَّتها زهرة في زراعة النباتات والزهور والنباتات العطرية.

كانت - بصفة خاصة - تعشق أنواعًا مُعيَّنة من الزهور وشُجيرات الورد، كالورد البلدي الذي زرعت منه عدة شُجيرات تحمل ألوانًا مختلفة وروائح عَطِرة، وتوسَّعت في زراعة الياسمين ذي الرائحة الزكية والألوان البرَّاقة الزاهية، والأوراق دائمة الخضرة.

نَمَتْ شُجيرات الياسمين، وتوغَّلت، وتسلَّقت، فزيَّنت حوائط الدار وجُدرانها، وملأت الشُّرفات عبيرًا وبهجة وبهاءً وروائح عَطِرة.

أما شُجيرة ملكة الليل أو مِسْك الليل كما يُطلِق عليها البعض فقد استخدمتها كسياج حول منزلها، وكحدٍّ فاصل يحدُّ حديقتها، وكانت هذه الشجيرات تتميَّز زُهورها بألوانها المتعددة المُبهِجة، وروائحها الزَّكية الفوَّاحة التي تفوح في كل المنطقة المحيطة بالدار والجوار؛ فتطيب لها النفوسُ، وتبعث فيها الأمَلَ، وتبثُّ فيها روح التفاؤل، وكان كل مارٍّ بالشارع يستحسن الروائح الفوَّاحة والمناظر الخلابة، ويدعو بالخير لأصحاب الدار.

كانت شُجيرة الفل هي المُفضَّلة لدى زهرة، فكان لها وَقْعٌ خاصٌّ في نفسِها، و عَشِقت عبيرها، وكانت تجمع زهور الفُل المتساقطة، وتصنع منها عُقودًا تُزيِّن جيدها، وأحيانًا تُزيِّن بها حوائط غرفتها، فجعلت للمكان الذي توجد فيه عبقًا خاصًّا وسحرًا ورونقًا ارتبط بها وباسمها وبجودها.

بعد أن أعدَّت زهرة طعام العشاء، خرجت إلى حديقتها الغنَّاء تتفقَّدها، وتتفقَّد زُهورها، وتستمتع بعبق الزهور وعبيرها حتى يحين وقت قُدوم أبيها من الحقل.

قبل المغرب بدقائق قليلة حَضرَ الأب، وأدخلَ الماشية إلى الحظيرة؛ لكي تحلبها عفاف، بينما هو يستكمل يومه كالمعتاد، حيث يغتسل ويتوضأ ويذهب إلى الزاوية الكائنة في آخر الشارع؛ ليصلي المغرب جماعةً كما اعتاد أن يفعل منذ عشرات السنين، حيث كان يذهب للصلاة برفقة والده الذي كان كان صاحب الفضل الأول عليه في تعلُّق قلبه بالصلاة وبالمساجد. .

ما كادت الأسرة تفرغ من عشائها حتى طَرَقَ أحدهم الباب مناديًا:

- يا حاج عبده .. يا حاج عبده.

أسرعتْ صفية نحو الباب لتفتحه دون أن تسأل عن هوية الطارق، حيث إن صوته مألوف لهم جميعًا، فتحت الباب وهي باسمة الثَّغرِ، مُرحِّبةً بالجار العزيز:

- تفضَّل يا عم سالم .. أهلًا وسهلًا بك.

وأشارت بيديها إلى حجرة الضيوف الخاصة بهم، حيث يوجد والدها.

دخل سالم الحجرة، وظَلَّ نحو نصف ساعة يتحدث مع عبده، ولم يقطع خلوتهما إلا دخول صفية تحمل صينية الشاي لهما، وعندما دخلت انقطع حديثُهما، ولم ينبسا بكلمة أمامها، بعدما فرغ الرجلان من حديثهما، اصطحب عبده سالمًا حتى باب الدار مودعًا، باسمًا، فرحًا، مُنشرِح الصدر.

كانت زهرة في غرفتها عندما استدعتها أمُّها قائلةً لها إن والدها يريد مُخاطبتها في أمر مهمٍّ.

دخلت زهرة حجرة أبيها على استحياء مستفسرةً عن سبب استدعائها، فأخبرها والدها أن عليها أن تُجهِّز نفسها غدًا؛ لأن هناك شابًّا من أسرة طيبةٍ قد رآها الأسبوع الماضي في حفل زفاف محمد ابن جارهم سالم، وأثارت زهرة إعجابه وبعد السؤال والتقصِّي عنها من قريبه سالم، ومن يثق بهم من أهل القرية، فقد قرَّر التقدُّم لخطبتِها.

اعتلى وجهُ زهرة خجلٌ ممزوج بتورُّد وجهها، وأطرقت عينيها إلى الأرض حياء من أبيها؛ خشيةَ أن تُقابِل عيناهُ عينيها.

انصرفت زهرة إلى حجرتها وهي في حيرةٍ من أمرها متسائلة عن هُوية هذا الشاب ومن عساه يكون، فلم يلفت نظرها أحد، ولم تنتبه لوجود أحد.

لم يكن غريبًا على زهرة تردُّد الكثيرين من الراغبين في طلب يدِها والاقتران بها، فما أكثرهم في الآونة الأخيرة، وقد أينعت، وأزهرت، وازدادت جمالًا ورونقًا، فأصبحت كثمرة الفاكهة اللذيذة التي ما رآها رجل إلا وأجَّلها، واشتهاها، واشتهى تذوَّقَها، حتى أصبحت لبعضهم كفاكهة مُحرَّمة لا يجوز لهم حتى اشتهاؤها، وكما هي طبائع الرجال يعشقون ما بَعُدَ عنهم، ويُجنُّ جُنونهم بمَن يُعذِّبهم. أما هي فكانت لا تأبه بنظرات الجوعى مِن حولها، ولا بنظرات معجبيها، وما أكثرهم! وكَمْ كرهت تحديقهم إليها! وكم كرهت عيونهم المستذئبة التي تتحرَّاها في كل موضعٍ!

ما كان عليها إلا انتظار قِسمتها ونصيبها، وما قدَّره الله لها، حالها كحال غيرها من البنات الملتزمات في المجتمعات الشرقية، وخاصة الريفية منها، حيث إن البنت لا تملك حق المبادرة أو إبداء الإعجاب قبل الزواج أو حتى إبداء الرغبة والتعبير عنها لزوجها بعد الزواج.

أيقنت زهرة أنها لا تملك إلا الانتظار، وليس أي انتظار، إنه انتظار العفيف المُتعفِّف الذي لا يتأفَّف ولا يقنط من رحمة الله، ولا يُعذِّبه طول الرجاء؛ لأن نفسها نفسًا حلوة راضية مُستبشِرة دائمًا أن الأجمل قادم، وأن الله لا يخذل صابرًا مُنتظرًا. إنَّ الله لا يخذل صابر، لفرجه حافظ.

ولكنها لم تكن ترغب في الزواج لمجرد الزواج، فقد رفضت العديد والعديد من شباب قريتها، أو شباب القرى المجاورة، لا لعيبٍ فيهم، ولكن لأنها لم تستشعر ذلك الإحساس الرائع الذي قرأت عنه في الروايات التي كانت تستعيرها من مكتبة المدرسة أو من قصر ثقافة المحمودية القريب من مدرستها، ولم ينبض قلبُها لرؤية أحدٍ، ولم تضطرب أنفاسها يومًا ما للأحد ممَّن تقدَّموا لخطبتها لذلك آثرت الانتظار والصبر لما قد يؤول إليه نصيبُها ويهديه إليها القَدَرُ الذي تعشَّمت فيه كثيرًا.

لم يعترض والداها على اعتراضها على كثيرٍ ممن تقدَّم لها، بل أيَّداها في كثير من قراراتها؛ لأن أحدًا منهم لم يَرُقْ في نظرهما إليها، خاصة جدَّتها لأبيها، حيث كانوا يرونها زهرة الدار وريحانتها، وتمنَّوا لها عيشة هنيةً رغدة تتوافق مع ما حباها الله به من جمالِ الخُلق الخِلقة.

اتسمت حياة قاطني القرى خاصة المزارعين منهم - وهم الأغلبية - بالكَدِّ والتعب والمشقة لما يتكبَّدونه من ظروف عملهم في الحقول، في ظِلِّ التغيُّرات المناخية المختلفة، فتارة يعملون في أجواء شديدة البرودة أو ممطرة، وتارة أخرى يصطلون لفحات الشمس الحارقة في أيام الصيف، بالإضافة إلى العناية بمواشيهم وخدمتها .. لكل هذه الأسباب تأنَّى الوالدان والجَدَّة في البتِّ في أمر زواج زهرة.

الفصل الثاني

تنفَّس الصباحُ، وأشرقت الأرضُ بنور ربِّها .. تناول عبده الفطور مع أسرتِه، وذهب إلى حقله بعد أن أخبر أهل بيته أنه سيعود إليهم بعد صلاة العصر؛ ليستقبل العريس وأهله وأوصاهنَّ أن يكنَّ على أهبة الاستعداد لمَقدِم الضيوف وتجهيز اللازم لإكرامهم والظهور بمنظر لائق لتزكية مكانتهم في نفس العريس وأهله.

اقترب العصر، واقترب اللقاء المُرتَقب، وزهرة تترقَّب حضور الضيوف، وكلما اقترب الموعد المُحدَّد ازداد خفقانُ قلبها وتمنَّت لو أنها تجد ضالَّتها، وتجد مَن يتملك وجدانها ويخفق له قلبُها.

كانت تخشى أن يكون كسابقيه، ولكن تلك المخاوف ضعُفت بعد أن حكت لها أمُّها صباحًا بعضًا من خِصال العريس كما رواها الحاج سالم؛ فهو يُدعى أحمد، وهو الابن الثاني في أسرة ميسورة الحال لأب كان مديرًا للجمعية

الزراعية في قريته المجاورة لقريتهم. تتكوَّن الأسرة من الأب والأم، ويتوسط أحمد أخًا يكبره وأختًا تصغره، متزوجة منذ عامين بموظفٍ في مستشفى دمنهور العام، وتعيش مع زوجها في مدينة دمنهور، يعمل الأخ الاكبر مسعد في السعودية في مزرعة لأحد الأمراء، وقد أوجد عملًا كمحاسب لأخيه الاصغر الحاصل على بكالوريوس التجارة بتفوق بعد انتهاء تجنيده.

انشرحت أسارير زهرة عندما أضافت الأمُّ أن الحاج أكد لأبيها أن العريس يتمتَّع بالوسامة، وحُسن الخُلق، ويشهد له القاصي والداني بذلك.

استبشرت زهرة خيرًا لما سمعته، ودخلت حُجرتها تستعدُّ لهذا اللقاء المنتظَر بناء على تعليمات أمِّها.

اختلت زهرة بنفسها في غرفتها، وقابلت إلحاح أختيها بالدخول معها بالرفض، حيث فضَّلت الاختلاء بنفسها، وعدم تمكنيهما من رؤية زينتها إلا بعد الانتهاء.

وقفت زهرة أمام المرآة مُرتبكةً وبدأت تهيُّب ما هي مُقْدِمة عليه بعد قليل. اختارت ثوبًا من الستان الأزرق الزاهي الذي طالما أحبته وأشاد به كل من رآها ترتديه، حيث كان يُبرِز كل مفاتن الحُسن ومناطقه في جسدها، ويزيد لونه الطاغي وجهَها المرمري المَشوبِ بالحُمرة إشراقًا، ويُضفي على بريقه بريقًا.

وَضَعَتْ زهرة اليسير من طلاء الشفاه، فجعل شفتيها كحبتي كريز تستحثَّان مَن يراهما على التهامهما، ووضعت القليل من طلاء الخدود، فكان خدَّاها كمن أضرم بهما نارًا تُشعِل أفئدة من يهفو إليهما.

كحَّلت عينيها فزادتهما بدعًا وحُسنًا، ووهبتهما سِحرًا يخطف ألباب الناظرين؛ فلا يملك الناظر إليها الا التَّسبيح بحمد الخالق الذي أبدعَ فصوَّر، وجسَّد فحوَّر، وكوَّر وأحنى، ودوَّر.

خَفَقَ قلبُها مع طرقات شقيقتها هناء على باب حجرتها مُعلنةً قُدوم الضيوف، وما هي إلا لحظات قليلة حتى يتمَّ استدعاؤها للترحيب بهم والجلوس معهم.

كرهت زهرة أن تكون سلعةً تُعرض لمن يرغب، ولكنها كانت تُدرك أنه لا مناص من ذلك، فبنات الأصول ليس لهن بُدٌّ من ذلك، وما حسَّن موقفها أن عريس اليوم قد رآها وفُتن بها، وقرَّر خِطبتها دون حتى أن يُحاورها.

تجاذَبَ أهل الدار وضيوفهم أطراف الحديث، وتنوَّعت موضوعاتهم وفكاهاتهم، حتى طلبت أمُّ العريس أن ترى العروسة، فما كان من عفاف إلا أن خرجت لتحضُر بعد برهة قصيرة مصطحبة زهرة تحمل صينية عليها عدة كؤوس من عصير المانجو البارد.

ما كادت تخطو زهرة بقدميها داخل الغرفة حتى سمعت صوت والدي العريس مُعبِّرين عن استحسانهما لجمالها الأخَّاذ مُردِّدين:

– ما شاء الله .. تباركَ الله... سبحانَ الخلَّاق.

أضافت الأمُّ:

- يا زين ما اخترت يا أحمد .. لطالما تمتَّعت بذوق رفيع.

- الجميلة للجميل.

كان الحضور ينظرون مُنبهرين مبهورين بجمالها وحُسنها، حتى أهل بيتها الذين لم يعهدوها وهي تضع مساحيق التجميل التي زادتها روعة وبهاءً.

وضعت زهرة الصينية على منضدة مرتفعة تتوسَّط الحضور وهي تُحملِق في أرض الحجرة، كأنها مُغيَّبة أو فاقدة للوعي، ولم ترفع ناظريها أو تُوجِّههما نحو العريس حتى هذه اللحظة. ولم تنتبه لما هي عليه، حتى طلبت من والدتها أن تُسلِّم على الضيوف، وتحييهم، وما كان منها إلَّا أن مدَّت يُمناها إلى أمِّ العريس التي احتضنتها وقبَّلتها و(طبطبت) وربتت وتجوَّلت بكفِّيها من ظهرها إلى كتفيها حتى كادت تقترب من نهديها المكتنزين الشامخين، فنفرت زهرة وخطت خطوتين للخلف، مع احتفاظها بابتسامتها الوضَّاءة على وجهها، انتقلت بيُمناها إلى والد العريس مصافحةً، و قد منحها يمناه مصافحًا، وأطبقَ بيسراه على يُمناها مستحسنًا.

قبل أن تنتقل زهرة وتُلقي تحيتها الأولى، ونظرتها الأولى على العريس المنتظَر، أطرقت رأسها، ومدَّت عينها إلى الأرض مؤجِّلة النَّظرَ إليه رهبةً وخيفةً أن يكون كمن سبقوه.

مرت تلك الثواني كساعاتٍ وهي متلعثمة، مُتردِّدة، مُتخوِّفة، تتهيَّبُ اللقاء، ولم تنتبه وتفطن لما هي بصددِه، حتى وصل لمسامعها صوت والدها باسمًا:

– هيا، زهرة .... سلِّمي على الأستاذ أحمد.

مدَّت زهرة يدَها المرتعشة نحو أحمد، فالتقطها أحمد، وقَبَضَ عليها بإحكام، كأنه وجد كنزًا ثمينًا سيضيع منه إن أفلتت يدَها. وحاولت هي التملُّصَ من يدِه الضاغطة على يدها، وهي مطأطئة رأسها، مُحدِّقة إلى أرض الحجرة، فلم تستطع أن تسحب يدها، فما لبثت أن رفعت عينيها نحو ذلك القابض على يدها، فالتقت عيناها بعينيه للمرة الأولى.

وكانت النظرة الأولى، والشرارة الأولى، والميثاق الأول، وساد الصمت والترقُّب من الجميع، كأنهم اتفقوا فيما بينهم اتفاقًا غير مُعلَن أن يحترموا قُدسية لحظة الميلاد هذه التي شهدت ميلاد حبٍّ طاهر نقي، لم يجد إلا دفء الأهل ورعايتهم وتأييدهم ومُبارَكتهم لميلاده.

أفاق العروسان على صوت عفاف داعية ابنتها أن تجلس، فبادرت زهرة وانتبهت من غفلتها، وجلست في ركن الحجرة، فطلبت منها أم أحمد الجلوس بجوارها، فاستجابت زهرة، ولبَّت مطلبها، فربتت على كتفِها و(طبطبت) على ظهرها، كأنها تبعث لها برسالة اطمئنان واستحسان بطريقتها الخاصة.

اتَّخذت زهرة مجلسًا نائيًا عن أحمد في أحد أركان الحجرة، وظلَّ الأهلُ والضيوف يقصُّون الحكايات والطرائف، وهي صامتة مُحدِّقة إلى الأرض،

حتى طلبَ والد العريس أن ينفرد العروسان معًا لبعض الوقت، ولاقى هذا الطلب ترحيبًا من عبده الذي اصطحبَ أحمد وزهرة إلى حجرة أخرى، وانصرف بعد تيقُّنه من أن باب الحجرة سيظل مفتوحًا.

جلست عفاف على استحياء، وجلس أحمد على الأريكة المُواجِهة لها، كان الصمت هو سيد الموقف لحظاتٍ حتى تغلَّب عليه أحمد الذي أخذ ينتزع منها أطرافَ الحديث انتزاعًا.

طلبَ أحمد من زهرة أن تنزع عنها رداء الخجل والحياء الذي في غير موضعه؛ حتى ينتهزا الفرصة التي منحهما إياها الأهل ليزددا تعارفا و تقاربُا.. وألُفة.

كان أحمد شابًّا، وسيمًا، طويلًا، ممشوق القوام، مفتول العضلات، خمري اللون، أسود الشعر، يمتلك وجهًا مريحًا، ولسانًا فصيحًا.

تمتَّع أحمد بجاذبية خاصة، وروحٍ مرحة لا تخلو من وقارٍ ورزانةٍ، وقد استطاع بكلماتٍ بسيطةٍ، ونظراتٍ حنون، حانية، أن يتسلل إلى قلبها ويجذبها إليها.

تلاشى ارتباك زهرة تدريجيًّا في أثناء متابعتها حديثَ أحمد الشائق، وأسلوبه الرائع في السرد، فحكى لها عن دراسته، وذكريات الجامعة، وعن عمله في السعودية، وعن طموحاته المستقبلية، ورغبته أن يعود إلى مصر ليستقر فيها بعد أن يجمع مبلغًا مناسبًا لعمل مشروعٍ تجاري ضخم.

بعد أن تحدَّث عن نفسه أخبرها أنه حان دورها لتخبره عن نفسها، وعن هُواياتها وأحلامها وآمالها المستقبلية.

استجمعت زهرة شجاعتها، وتلاشى ارتباكُها، وأخذت تُحدِّثه عن نفسها، فأخبرته أنها فتاة بسيطة آثرت التعليم المتوسِّط؛ لأنها تعشق البيت والاستقرار، ولا تميل إلى الخروج كثيرًا، ولا تُحبِّذ عمل المرأة، فهي ترى أن المرأة مكانها الطبيعي الذي خلقها الله من أجله هو البيت ورعاية الزوج والأولاد.

بعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر، وتحدثا معًا حديثًا نبع من قلبيهما، توجَّه أحمد إلى حجرة الضيوف، حيث يوجد والداه مع أهل الدار، وعندما اطمأنَّت نفس أبيه إلى قرار أحمد، طلب والد أحمد من عبده أن يأخذ وقته للسؤال عنه، وعن أسرته، وعن أحمد، ودعاهم جميعًا إلى زيارتهم في عُقر دارهم لرؤية منزلهم، ولزيادة التقارُب العائلي بينهم.

انصرف الضيوف بعد تبادُل أرقام الجوالات الخلوية، والتعهُّد بالتواصُل، واتصال الودِّ بين الأسرتين مهما يكن الرد.

فَشِلَتْ زهرة أن تخلو بنفسها ولو لحظات، فكم كانت بحاجة ماسَّةٍ إلى الاختلاء بنفسها، إلا أن هناء وصفية حرمتاها تحقيقَ تلك الرغبة، فكانتا مبتهجتين غاية الابتهاج، فقد دفعتهما رؤية السعادة في عيني أختهما إلى الفرح والمرح .. فجذبت هناء زهرة من يدِها وهي تتراقص وتدور بها في جنبات

الغرفة. أما صفية فقبَّلت أختها عدة قُبلات مُعبِّرة لها عن سعادتها بهذا الشاب الوسيم الذي يُشبه أبطال المسلسلات التركية التي تهواها.

دخلت عفاف على بناتها، وطلبت من هناء وصفية الخروج من الغرفة؛ لأنها تريد أن تخلو بزهرة، ولما خلتْ بها أخبرتها أن والدها يطلب منها أن تُفكِّر جيدًا في الأمر، ولا تتسرَّع في الردِّ، وأن تصلي صلاة الاستخارة أيضًا؛ حتى تستخير الله في أمر الزواج بهذا الشاب، وأن والدها سيتحرى عن هذا الشاب وأهله، وسيسأل عنهم القاصي والداني، فإذا اطمأنَّت نفسه لصلاح الشاب والأهل فسيكون ردُّ زهرة هو الفيصل النهائي في هذا الأمر.

سكنت نفسُ زهرة لحديث أمها، وألقت جسدها على الفراش، واسترجعت الأحداث منذ أن وقعت عيناها عليه، وبدا لها أنها دُفعت إليه دفعًا، فقد استطاع أن يثير إعجابها بحلو حديثه وتبسطه معها.

تبسَّم ثغرها وهي تستعيد كلماته وابتسامته، وتساءلت: هل من الممكن أن يكون هذا الوافد الجديد إلى عالمها وحياتها هو مَن انتظرته طويلًا وادخرت له كل أحلام الصِّبا وخواطر المراهقة؟ فهي لم تنخرط كغيرها من زميلات الدراسة ورفيقات القرية في علاقات عابرةٍ، ولم تلتفتَ يومًا لنظرات الإعجاب أو كلمات الإطراء التي كثيرًا ما ألقاها الكثيرون على مسامعها في أثناء ذهابها وإيابها هنا وهناك.

ظلَّت زهرة متيقظة طوال ليلتها حتى عانَقَ الصباحُ طَيفَ أفكارها، ومع بواكير الصباح غلب النوم عينيها، فأخذها من أرَقِ الفكر إلى دنيا الأحلام، وما أحلاها من دنيا بلا حواجز أو موانع!

رأت زهرة نفسها مُرتدية ثوبًا أبيض ناصعًا رقراقًا، وكان شعرها منسدلًا على ظهرها كسبائك الذهب، وكانت وحيدة في مكان شاسع تكسوه الخضرة والورود، ويحيط بها اللون الاخضر من كل جانب، هي تجري كالفراشة هنا وهناك، وفجأة وقعتْ في حفرةٍ عميقةٍ وظلَّت تبكي وتصرخ وتمدُّ يدَها، ولا تجد مَن يمسك بيدها ويساعدها على الخروج من الحفرة.

استيقظتْ زهرة من نومِها مرعوبةً فَزِعَةً. تعوَّذت من الشيطان الرجيم، ونهضت من فِراشها، فتوضَّأت، وصَّلَت، وقرأت ما تيسَّر من القرآن، وقرَّرت أنها لن تقصَّ رؤياها على أسرتها، ولم تُلقِ بالًا إلى هذا الكابوس، وظنَّت أنه مجرد أضغاث أحلام؛ لأنها كانت قَلقةً ومتوترة طوال اليوم.

مَرَّ أسبوع وعبده يتقصى ويسأل هنا وهناك، وطابت نفسُه لهذا النَّسب الجديد، خاصة أن الجميع أشاد بحُسن سيرتهم، وطيب سُمعتهم، وشهد القاصي والداني لأحمد بحُسن الخلق، والسيرة الطَّيبة، وطهارة اليد والنفس.

خلا الأب بابنته ليعرف رأيها الأخير، فما كان منها إلا أن أطرقتْ رأسها وابتسمت، ففَهِمَ الأب أن صمتها وابتسامتها يعنيان قبولها، فأرسل إلى الحاج سالم رسول أسرة أحمد وقريبهم الذي كان ينتظر ردَّه بفارغ الصبر؛ حتى يبلغ أحمد وأسرته بالردِّ؛ لأن أحمد كان قد فرغ صبرُه، وتعجَّله أكثر من مرة، وطلب من سالم أن يتعجَّل عبده في الردِّ، ولكن سالمًا تفهَّم تشوُّق الشباب، وتعجُّلهم الأمور، وتركَ الأمر يتخذ مجراه الطبيعي دون حاجةٍ للعجلة، فمثل تلك الأمور لا بد أن تجري على مهلٍ.

أُعلنت الخطبة في جوٍّ أسريٍّ مُفعَم بالبهجة والسعادة، وإطلاق الزغاريد في كل جنبات المنزل، وفي الشارع الذي تقطن فيه أسرة زهرة، حيث من عادات سيدات الحارة مجاملة بعضهن البعض بالزغاريد في مثل تلك المناسبات، وتتفاخَر السيدات، ويتباهين بقوة الزغرودة وطولها وطريقة أدائها أيضًا، ويتفنَّن في تنغيمها وتلحينها. وهنَّ بذلك يُجاملن بعضهن البعض، مُعبِّراتٍ عن فرحتهنَّ وسعادتهنَّ لجيرانهنَّ من ناحية، ومبعدات عن أنفسهن أي اتِّهام بالحسد أو الحقد أو الغيرة خاصة لمن لديهن بنات في السن نفسها، ولم تتم خطبتهن أو زواجهن بعد.

بدأ أحمد يتردَّد على بيت زهرة، ويختلي بها في ظِل رقابة صارمة من أهل البيت، وتولَّت صفية مهمة المراقبة المباشرة والجلوس معهما، ومتابعتهما بناء على تكليفات الأب، واقتصر دور عفاف وهناء على المراقبة غير المباشرة. كثيرًا ما حاول أحمد حثَّ صفية على تركهما وحدهما ولو بالحيلة، ولكن محاولاته كثيرًا ما كانت تبوء بالفشل، فكان الهاتف الخلوي هو وسيلتهما الوحيدة للبوح بكل ما تعذَّر البوح به أمام صفية.

كانت حديقة زهرة هي المكان المُفضَّل للخطيبين، وجهَّزت زهرة مكانًا خاصًّا لهما يجلسان فيه بركن الشُّرفة التي كان يجلس فيها والدها في ليالي الصيف محاطًا بجميع أفراد أسرته، حتى الجدة كانت تلحق بهم بعد الانتهاء من أداء صلاة العشاء، ويظلُّون يتسامرون ويمرحون أمام شاشة التلفاز

التي يخرجونها ليلًا ليشاهدوا ما يشاؤون في شرفة الحديقة هاربين من حَرِّ الصيف.

كان أحمد قد أهدى زهرة هاتفًا خلويًّا ذكيًّا بإمكانات عالية حتى يتمكن من التواصُل معها، أينما كانت، وحيثما كان، وكانا لا يفترقان إلا إذا غلب أحدهما النوم، فنام وهو يُحادث الآخر، فيتغلب سلطان النوم بجبروته على سلطان الحب بسطوته ولو لساعات قليلة رغمًا عنهما، وربما في بعض الليالي استرقت روحاهما اللقاءات الجميلة في أحلامهما رغمًا عن سلطان النوم وجبروته ورغمًا عن صفية ومضايقاتها.

كانت زهرة كزهرة برية نديَّة، بهيَّة، لم تلمسها يد من قبل، ولم ينبض قلبها لأحد، كأنها كانت تدَّخر كل ما تملك من حسٍّ وعاطفة جياشة، وقلب ملتهب كالجمر للطارق الذي يستحقُّ أن تفتح له باب قلبها مُحكم الإغلاق وقد كان.

تعدَّت عُذريتها عذرية الجسد إلى عذرية الروح والفكر، وكان تعلُّقها بأحمد وحبُّها له حبًّا بِكرًا فياضًا نقيًّا يملأ قلبها بالسعادة التي لم تعهدها من قبل، ويبثُّ في نفسها راحةً وطُمأنينة وسكينة، فسكنت نفسها إلى نفسِه، وشعرت بحبِّه يتملَّكها ويتمكَّن منها حتى امتلأت نفسها به.

عرفت الدنيا مع مُحيَّاه، واقتبست لذة الدنيا ونعيمها من وجوده في دنياها، ولِمَ لا؟ وهو مَن فتح لها أبوابًا جَهِلَتْها وجعلها ترى ما لم تَرَهُ من قبل، فكانت لمَسته اللمسة الأولى حتى ولو كانت من خلال السلام باليد أو لمسة خاطفة

انتزعاها خلسةً، وكانت لهفتها عليه هي اللهفة الأولى، ونبضات قلبها هي النبضات الأولى، وكان هو حبُّها الأول.. وعشقها الأوحد .. و..... و..... و.... وكم لأشياء ..... وأحداث ..... ومشاعر ..... تُنعت بالأولى و.... تأخذ من... الأنفس و..... الأرواح.

لقد هامات به وَجْدًا، وذابت عِشقًا، ومَلَكَ هواه روحها وعقلها وقلبها وجميع جوارحها، وكيف لا تهفو إليه روحُها وقد لامسها قبل أن يلامس يديها، فالقلب فِطرته الهوى، وكل جميل بمثيل روحه يغرم ... وكل جميل على شبيهه ... يقع.

لقد تمكَّن عِشقُه منها، وأصبح هو محور حياتها، حتى أن كلمة حب أو اهتمام منه كانت تجعلها تدور حول نفسها، وحوله، وحول الكرة الأرضية، وحول الشمس.

قُبيل الزفاف بأسابيع انشغلت زهرة بالذهاب برفقة والديها لاستكمال جهازها، فكانت تطوف مع والدتها على المحال والحوانيت، وتختار بعناية ما يلزمها من مقتنيات وأوانٍ منزلية وملابس ومفروشات لشقة عُرسها وعُش حبِّها.

كانت أياما شاقَّة مرهقة لجميع أفراد الأسرة، حتى تم التنجيد، وتم إيصال الجهاز إلى بيت العريس في سيارات نقل متوسطة وكبيرة الحجم، وسط أجواء بهيجة مُبهجة من الفرح والسرور، وتسابُق الجميع كبارًا

وصغارًا، رجالًا نساء لتقديم يد العون، وحَمْل جهاز العروسة، وما أعقبَ ذلك من ترتيب الشقة، ووضع كل شيء في موضعِه.

بعد الانتهاء من عناء إعداد عُشِّ الزوجية، كان يوم الحناء، فامتلأت الدار بالبنات والسيدات من الأقارب والجيران، أما الرجال فكانوا يجلسون خارج الدار أو يفترشون الحصير أمام الدار .. انطلقت الزغاريد، وتعالت أصوات البنات بالغناء والقفشات والضحكات.

مع نسائم العصر انتهى العمال من تصميم كوشة العروس، وتزيينها بالورود، وإعداد مكان سهرة الحناء للمدعوات من صديقات العروسة، وجيرانها والأهل والأقارب.

تزيَّنت زهرة، وارتدت ثوبًا ورديَّ اللَّون شديد الإحكام على الجسد، حتى إذا ما وصل إلى خصرها اتَّسع وتعددت طبقاتُه، فبدت كشمس منيرة وسط رفيقاتها. كانت رقيقةً، حالمةً، تعلو وجهها ابتسامةٌ مُغلَّفة بالحياء والخجل و الوجل.

رقصت الفتيات، ورقصت عفاف زهي تحمل صواني الحناء ذات الشكل الهرمي المملوءة بالشموع المضاءة، وتغنَّت إحدى السيدات بأغنيات ريفية تراثية وبعض الأهازيج التي تحمل عبق الريف ورائحة الأرض الخصبة وما تَداوَلَه الأجداد من حكايات.

جذبت إحدى الفتيات يَدَ زهرة، وأنزلتها من مقعدها، وحثَّتها أن ترقص معهنَّ، اعترضت زهرة، لكنها أذعنت لإصرار الجميع أن ترقص معهنَّ ...

التفَّت الفتيات في دائرةٍ حولها، وأخذت ترقص، وتتمايَلُ كغصنِ بانٍ تُداعِبُه الرياح.

اقتربت منها صديقاتُها يُمازِحنَها، ويداعِبْنَها، ويهمسن في أذنها، ويتضاحكن، وحرصت معظم الفتيات على قرصها في ركبتيها.

بعد انتهاء حفل الحناء، وانصراف الفتيات والمدعوات من الأهل والجيران والأقارب سيدات القرية، حرصت عفاف على الاختلاء بابنتها، وأسدت إليها بعض النصائح التي عادت ما تُسديها الأمُّ إلى ابنتها ليلة زفافها.

أخبرت عفاف زهرة أنها ستترك بيت أبيها وأهلها، لتذهب إلى بيتٍ آخر لن تكون فيه فتاة مُدلَّلة كما اعتادت أن تكون في كنف أبيها وأمِّها، ولكنها ستكون سيدة البيت الجديدة، وستصبح المسئولة عن إدارة شئونه، وتسيير أموره، ولذلك يجب أن تكون أمينة، ومخلصة، وجديرة بثقة زوجها وأهله، وتكون مُحبَّة لزوجها وأهله ومطيعة لهم جميعًا.

شرحت له أيضًا عفاف الكثير من الأمور التي تتعلَّق بعلاقتها الزوجية الحميمية، وواجب إرضاء الزوج واحترامه، وحُسن معاملته، وحُسن صُحبته، والحفاظ على عِرضه وماله.

الفصل الثالث

حان اليومُ الموعود، واللحظة التي تتوق إليها كل فتاة حين يذهب إليها عريسها ورجل حياتها؛ ليمدَّ يدَه إليها ويصطحبها من "الكوافير"، وتكون قد غادرت بيت أبيها الرجل الأول في حياتها، إلى بيت رجل جديد. خرجت من بيت حاميها الأول، وحبيبها الذي لم يخذلها، ولن يخذلها يومًا. فقد كان الأب دومًا حبيبًا غايتُه إسعادها، وهدفه أن تنعم هي حتى لو عاش هو شقيًّا إلى الأبد. فمن ابتسامتها تشرق حياتُه، ومن مُحيَّاها تستنير عيناه.

مَدَّ أحمد يده إليها، وعيناه تفيضان شوقًا، فازدادت نبضات قلبها سرعةً وعددًا، وازدادت وجنتاها توردًا واحتقانًا، وهي تُسلِّمه يدها، فما كان منه إلا أن طَبَعَ قُبلة حانية على يدها، وقُبلة أخرى على جبينها.

سار موكب العروسين إلى منزل العريس في القرية المجاورة التي لم يسبق لزهرة زيارتها أو زيارة بيت أحمد؛ لأن عادات القرويين تمنع البنت من زيارة بيت خطيبها قبل الزفاف.

كانت عيناها تستكشفان هذا المكان الجديد الذي ستؤول إليه. دَفَعَها فُضولها أن تنتقل بين الوجوه، وتستطلع المكان الذي سيجمعها بزوجها. لم تجرؤ على التصدي للعيون التي تتفحصها بدقة بالغةٍ، فهربت من نظراتهم الثاقبة، ونظرتْ إلى لا شيء.

كان منزل العرس منفردًا قائمًا بذاته وسط الأراضي الزراعية والمساحات الخضراء، و كان أمامه طريق مرصوف يؤدِّي إلى المحمودية، ويتكوَّن من ثلاثة طوابق، ويتكوَّن كل طابق من شقة واحدة ... الطابق الأول للوالدين، والطابق الثاني للأخ الأكبر و زوجته المقيمين في السعودية، والطابق الثالث سيقيم فيه العروسان الجديدان.

جلس العروسان معًا في الكوشة متشابكي الأيدي وسط احتفالات الأهل والأصحاب والجيران وهم يشاهدون المزمار البلدي والحصان الراقص.

صعد العروسان إلى عُشِّهما الجديد، وودعتهما أسرتاهما عند باب الشقة، وحينها همست عفاف في أذن بنتها لتخبرها بالمكان الذي تركت لها فيه قطعة القماش البيضاء.

انصرف الجميع، وخلا العروسان ببعضهما البعض للمرة الأولى، جلست زهرة على حافة السرير في وجلٍ ورهبةٍ منكمشةً ومُمعنة في تفكيرها.

تنبَّه أحمد إلى اضطرابها وارتباكها، فطمأنها، وأخبرها أنه لا داعي لذلك، وأن هذا اليوم هو يومهما الذي طالما انتظراه وحلما به.

أخذَ يُداعبها ويتحسس شعرها، وقسمات وجهِها، وطبعَ قُبلات لا حصر لها على جميع خلايا وجهها، حتى استقرَّ به المقام على شفتيها، وأحاطها بذراعيه، حتى بدا استسلامُها وذوبانها، وتلاشت ذاتُها في ذاتِه وبين أنفاسه الحارة ... وجدت راحتها بين راحتيه، ونعيمها المقيم في صدره ..... كانت تشتهيه بقدر ما اشتهاها.

ارتشفت الحب من شفتيه.

أتاها ناعمًا حالمًا وديعًا، ووصل إليها في حنان واحتواء كنسيم عابرٍ، فكان بردًا وسلامًا لها وعليها.

انتبها إلى حلول يوم جديد، وصباح سعيد لم يعهدا مثله من قبل، حين استفاقا على زقزقة العصافير، وحفيف الأشجار. كانا ما يزالان في نشوتهما وعالمهما اللذين رسما حدوده بميثاق غليظٍ وعهودٍ من المودة والود والرحمة والسكينة والسكن.

قضى العروسان أسبوعًا كاملًا لم يبرحا فيه عُشَّهما السعيد، وكانا لا ينشغلان عن بعضهما البعض إلا للترحيب بالمهنئين أو لتقديم واجب الضيافة لزوارهما. وبعد الاحتفال بـ"السبوع" بدأت زهرة تندمج مع حَماتها، وتنزل لشقة حماتها لتشارك في إنجاز المهام المنزلية من كنسٍ وغسيلٍ وطهوٍ، فكانت بهم بارَّة، ولهم مُطيعة، وكانت تتفانى في خدمة حميها وحماتها، ورأت فيهما امتدادًا لأبيها وأمِّها، فأحبَّاها وأغدقا عليها حُبًّا، ورعاية، واهتمامًا، واعتبراها ابنتهما الثانية.

حرصت زهرة أن تستمر في هوايتها، وألَّا تتوقف عنها بزواجها، فأحضرت شتلات ونبتات من كل الشجيرات التي تركتها في دار أبيها، وزرعت المنطقة المحيطة ببيت زوجها، وملأت شرفاتها بأصص الزهور والورود والنباتات العِطرية، حتى شقتها ملأتها بنباتات الظِل الوارفة؛ مما أضفى على بيت زوجها مزيدًا من الحياة.

كان أحمد يقضي معظم وقته مُستغرقًا في النوم أو مشاهدة التلفاز وخاصة مباريات كرة القدم التي كان مولعًا بمتابعتها، وأحيانًا ممارستها مع رفقاء الطفولة والصِّبا، خاصة صديقه عصامًا الذي كان يعمل مهندسًا في أحد مصانع مدينة برج العرب التابعة لمحافظة الإسكندرية، وكان لا يحضر للقرية إلا آخر نهار كل خميس على أن يعود لعمله صباح يوم السبت.

لم يتوقف أحمد عن مُلاطفة زوجته ومداعبتها بين الحين والآخر، ولم يتضاءل شغفهما يومًا ما، بل كان يتزايد مع مرور الوقت، واكتسب زواجهما وحبهما نكهاتٍ أخرى، مثل نكهة الصداقة، وحُسن الصُّحبة؛ فقد اعتاد أن يصطحبها لكل الأماكن التي شهدت طفولته وصِباه وحياته السابقة، التي حفلت بالكثير من الخطوب والأحداث والمغامرات التي لم تخلُ من طيشٍ وعربدةٍ، ولكن أحمد كان يستحسن مكانًا بعينه على شاطئ النيل، حيث أشجار التوت تتوسطها جميزة عتيقة شديدة التجذُّر في باطن الأرض، حيث كان يحضر أحمد ورفاقه، يلتهمون التوت والجميز، وهم يلعبون، ويعبثون، ويقفزون في النهر؛ ليهربوا من لفحات هجير الصيف وقيظه صيفًا، والتمتع

بنسائم العصاري خريفًا، والتنعم بالنسمات الرشيقة والظلال الوارفة في كل وقتٍ وحين، فكان هذا المكان الملاذ المُحبَّب لهم جميعًا، ومرتع الصِّبا والمراهقة.

وذات ليلةٍ، بينما الزوجان فيما هما عليه من الانسجام والتوافُق في جلسات سمرهما الليلية، طرق بابهما عصام ليخبرهما أن والدته وجدت له عروسًا مناسبة، وعندما سأله أحمد عن هُويَّتها أخبره عصام أنه يعرفها جيدًا، فهي بثينة بنت جارهم الأسطى صبحي، وأنها طالبة جامعية في السنة الثانية في كلية الآداب، وأنهم سيقيمون حفلًا كبيًار للخطوبة وتقديم الشبكة بعد شهرٍ، ورغم فرحة أحمد لسماع خبر خطوبة صديقه فقد أَسِفَ بشدة؛ لأنه لن يكونَ باستطاعته حضور حفل الخطوبة؛ لأنه سيكون قد غادر الوطن عائدًا إلى عمله في الأراضي السعودية، ولكنه أكَّد له أن والديه وزهرة لن يفارقوه في هذا اليوم السعيد.

مرَّت الأيام السعيدة كلمح البصر، وبدأ أحمد يعدُّ نفسه للعودة إلى عملِه في السعودية، وعَزَّ عليه أن يبتعد عن صنو روحه ورفيقة دربه التي ما انفكَّت تخفي دموعها المترقرقة، وتُداري حزنها لاقتراب موعد سفره، وعِوضًا عن ذلك حاولت التخفيف عنه بزعمها أن الأيام ستمضي مُسرعةً كالبرق، وأن وسائل التواصل الاجتماعي، والإنترنت ستقرِّب المسافات بينهما.

سافَرَ أحمد، ولم تُفلح وسائل التواصل الاجتماعي في إطفاء نيران الأشواق المستعرة، ولا في إخماد جذوة الحنين المتأجِّجة بينهما، بل زادت نيران الشوق

استعارًا وتوهُّجًا، فهما رغم كونهما قريبين كالملتصقين إلا أنهما بعيدان جدًّا، وتفصل بينهما مساحات شاسعة.

مرَّت ستة شهور كأنها ستة قرون، وكلما نفد صبر أحدهما، وقَلَّ تجلُّده حاول الطرف الآخر إقناعه بأنه فات الكثير وما بقيَ إلا القليل.

كانت زهرة في المطبخ تغسل أواني الغداء حين حثَّتها حماتُها على تَرْك ما في يدِها، وتُعجِّل بذهابها إلى طبيب الأسنان حتى لا تتأخَّر، وتكون بالمنزل قبيل المغرب خاصة أن السماء مُلبَّدة بالغيوم، وحالة الطقس تنبئ بهطول الامطار وأنها ستذهب بمفردها هذه المرة.

عانت زهرة آلامًا مُبرِّحة في ضروسها، وكانت تذهب لعلاج ضروسها ومتابعة التنظيف والحشو عند أحد أطباء الأسنان في مدينة المحمودية، وكانت تصطحب معها عادة حماها، إلا أنه كان يعاني نوبة إنفلونزا منعته الذهاب معها، وكانت زهرة لا تخرج من بيت زوجها أبدًا إلا بعد موافقة أحمد، والاستئذان من حميها وحماتها.

لبَّت زهرة رغبة حماتها، وصعدت إلى شقتها، وبدَّلت ثيابها، ووقفت على الرصيف المارِّ أمام المنزل تحسُّبًا لمرور سيارة أجرة تستقلها إلى المركز .. لم تمضِ بضعُ دقائق حتى وقف أمامها "عم صبحي" بسيارته "الميكروباص"... فتحَ لها أحدُ الحضور الباب مُلبِّيًا دعوة صبحي بفتح الباب لها وإفساح مكان لها.

دخلت زهرة السيارة، وجلست بجوار سيدة عجوز في الكرسي الذي يلي السائق.

لم تكد السيارة تصل إلى الموقف حتى طلبت زهرة من صبحي أن يتوقَّف، ونزلت زهرة من السيارة وأوقفت "توكتوك"، وطلبت منه أن يتوجَّه إلى عيادة طبيب الأسنان الذي يعالجها. توقَّف صبحي، ولم يُحرِّك ساكنًا، ولم ينبس بحرف، وعيناه ترقبانها حتى توارت في الزحام.

وجدت زهرة العيادة مزدحمة بالمرضى، وكان لزامًا عليها أن تنتظر مليًّا حتى يحين دورها.

لم تمر لحظات حتى بدأ هطول الأمطار بغزارة .... بل ازداد قلقها وتوترها عندما بدأت ترعد وتبرق، كأن السماء تُشبع الأرض العطشى، فتغدِق عليها من هِباتها المتنوِّعة.

عِشقت زهرة سقوط الأمطار، ورائحة التراب العطشى التي تنبعث عند مباغتة الماء الزلال لتراب الأرض الجافة المتعطش لبثِّ الحياة فيه، وكانت تلك الرائحة التي تعشقها هي ثمرة عِناق الاشتياق بين السماء والارض.

– يا .. الله .. يا لها من رائحة تتخللها فتنتشي لها جميع خلايا جسدها. ولكنها ستفتقدها الآن، إذ إن سحر هذه الرائحة لا ينبعث بقوة إلا في الأرض (الشراقي) شديدة العطش والتعطش.

اتجهت إلى شباك غرفة انتظار المرضى، وحاولت جاهدة أن تصل إليها تلك الرائحة فلم تجدها.

رنَّ هاتفها الخلوي، فإذا بحماتها تحثُّها أن تعود قبل حلول الظلام؛ لأن وسائل المواصلات تندر ليلًا خاصة في مثل ذلك الجو المنهمر المطر قارس البرودة.

طال انتظار زهرة، ولم يحن دورها بعدُ، وزاد توترُها حين وصل إلى مسامعها صوت أذان المغرب، فلم يكن أمامها إلا أن تستعطف المريض الذي حان دورُه مُعلِّلة موقفها بأنها تقطن في منطقةٍ نائيةٍ، وأن سفرها في هذا الجو ليس سهلًا، وربما لا تجد وسيلة مواصلات مناسبة لعودتها إلى منزلها في هذا الجو الممطر العاصف.

رقَّ لحالها المريض الذي استعطفته، وسمح لها أن تحلَّ محله .. فشكرته في عجلةٍ، وهرولت مُسرعة إلى حجرة طبيب الأسنان الذي أسرع بدوره في وضع لمساته النهائية لتثبيت حشو ضرسها والتيقُّن من ثباته.

انصرفت زهرة مسرعة من عيادة الأسنان، واستقلت "توكتوك" إلى موقف السيارات، وقبل أن تصل إلى الموقف، و جدت سيارة صبحي أمام مدخل الموقف وبها عدة أفراد، فحمدت الله أنها وجدت وسيلة لعودتها في هذا الجو الممطر.

انطلقت سيارة الأجرة ببطء، وتزايَدت حِدة مياه المطر ولم تخلُ السماء من نوبات برقٍ ورعدٍ متفرقة.

سار صبحي ببطء في هذا الجو الضبابي الملبَّد تحيطه المياه من كل جانبٍ حتى كادت المياه تصل إلى باب السيارة.

تنبَّه الركاب إلى انقطاع الكهرباء بعد خروج السيارة من نطاق المحمودية بقليل، وطلبوا من السائق أن يتوخَّى الحذر حتى يعودوا سالمين لذويهم.

تتابَع نزول الركاب واحدًا تلو الآخر، ولم يبق في السيارة إلا راكبًا واحدًا استوقف السائق قبل بلوغ القرية بنحو كيلومتر واحد، وهبط من السيارة أمام منزله.

ارتبكت زهرة وزاد معدل دقات قلبها، عندما وجدت نفسها بمفردها مع صبحي، ولكنها لم تعتد أن تسيئ الظن بالبشر، وتفترض دائمًا الخير قبل الشر، كما طمأنت نفسها بتذكيرها أن صبحي هو والد بثينة خطيبة عصام صديق زوجها الحميم .. وعلاوة على ذلك كان صبحي سائقًا معروفًا في القرية، ومحل ثقة الجميع، وكثيرًا ما حضر كسائق أجير لقضاء حاجات أهل زوجها أو كأحد أفراد القرية في مناسباتهم المختلفة، وقد استقلت سيارته أكثر من مرة، ولكن هذه هي المرة الأولى التي تكون معه بمفردها في سيارته.

كان صبحي رجلًا قوي البنيان، طويل القامة، عريض المنكبين .. لا يخلو من سمنة مع بروز في منطقة البطن. كان في أواخر الأربعينيات، لكنه كان ما يزال فتيًّا.

بدأت الريبة تتسلل إلى رأس زهرة عندما وجدته يختلس النظر إليها في المرآة بين الحين والآخر، ويتلفَّت يمينًا ويسارًا، وقد بدا عليه الارتباك.. حاولت أن تتشاغل عن نظراته بالنظر إلى جانبي الطريق.

شعرت زهرة أنها تسمع صوت نبضات قلبها من شدة خوفها وتوجُّسها، ولكنها كانت تتمتم ببعض آيات القرآن، وتطلب العون من الله عز وجل، وتستعين وتستجير به لكي تتخطى هذا الموقف المخيف بسلام، فهي لم تنفرد برجلٍ غريب من قبل، فضلًا عن خلوتها مع ذلك الغريب المريب في هذا الظلامً الحالك والبرد القارس، ولكنها كانت تطمئن نفسها باقتراب الوصول.

ارتعدت فرائصها، وأطلقت صرخة مُدوية عندما انحرف صبحي عن مساره، واتَّجه يمينًا بسرعة خاطفة مباغتة، واقتحم سور قصرٍ تحت الإنشاء قبل القرية بنحو خمسمائة متر. كانت تلك السرايا تخصُّ أحدً الأثرياء من أبناء القرية .. وكانت تتكون من ثلاثة طوابق تحت الإنشاء وسط الأرض الزراعية المملوكة لهذا الثري.

اتَّجه صبحي بسيارته بسرعة خاطفة خلف "الفيلا"، ولحق بيد زهرة فقبض عليها بإحكام قبل أن تطبق على مقبض باب السيارة.

تلفَّتت زهرة حولها صارخة مستنجدة، ولكن هيهات .. فقد ضاقت عليها الأرض بما رحبُت.

جذبها من يدها بشدة .. حاولت أن تفلت يدها من يديه مستصرخة متوسله إليه، فلم يعبأ بها، ولم يكترث بتوسلاتها وتأوُّهاتها، فما كان منه إلا أن أخبرها أنها لا عاصم لها منه اليوم، وأنه كان لها بالمرصاد، وقد حانت فرصته التي طالما انتظرها منذ أن رآها أول مرة، وأنه عجز عن إخراجها من رأسه خاصة بعد أن رآها في حفل خطوبة عصام وبثينة، ولكن رغبته فيها طغت على كل الاعتبارات الأخرى، وأنه منذ ذلك اليوم يتحيَّن الفرص، ويتربص بها لينقضَّ عليها.

فهو يشتهيها منذ زمنٍ، وأن هذه فرصته التي قد لا تتكرر أبدًا.

ازداد صراخها ونحيبها ومقاومتها فصفعها على وجهها، وفتح باب السيارة وهو ممسك بها، وحملها عنوة خارج السيارة، سحبها إلى حجرة بدون باب، يبدو أن صاحب الفيلا كان يعدُّها لتكون جراجًا للسيارات، حاولت أن تهرب، ولكن بلا جدوى، فكان يُحكِم قبضته عليها. حاول تقبيلها فزمَّت شفتيها، وأحكمت زمَّهما.. شدَّ عنها غطاء رأسها .. استعطفته فلم يرقَّ لها .. استرحمته فلم يرحمها.. وقعت في شَرَكه فقبض عليها بيديه.. دسَّ يديه بين طيات ملابسها، فمزَّق ما وصلت إليه يده كل ممزق .. حاولت الإفلات، فلحق بها، وتجبَّر عليها، فأسقطها أرضًا في هوة سحيقة ما خطرت يومًا ببالها .. اعتلاها مستحضرًا كل ما استطاع من قوةٍ وجبروت، وانهال على جسدها الضعيف المحترق، فاخترقه، وانهال عليها، فنَهِلَ منها، ونهش جسدها بأنيابه، كان ينخر وينهش كما ينهش الذئب شاة شارِدة.

طالت وطأته عليها، ولم يبرحها حتى طابت نفسه ببلوغ شهوته.

انصرف إلى السيارة فأحضر حقيبتها، وألقاها بجوارها، وولَّى منصرفًا دون أن ينبس بكلمة.

مَرَّ على زهرة وقت لم تتبَّن هل طال أم قصُر، وكانت كالمغشي عليها، لم تستوعب حقيقة ما حدث، وتمنت لو أنه كان كابوسًا سينتهي بمجرد أن تفيق من غفوتها.

مرَّت لحظات لم تُحصِها قبل أن تُدرِك حقيقة ما حدث لها، وأنها لا بد أن تحسن التصرف وبسرعة حتى لا يُفتضَح أمرُها.

حاولت بجسدها المتهالك أن تُلملم ما بقي من جسدها المتبعثر الذي تم استباحتُه بوحشيةٍ رغمًا عنها وهي تعلم حق العلم أنها مهما تفعل، فلن تستعيد ما تم بعثرته اليوم منها جسدًا وروحًا.

لقد جرَّدها من أمنِها وأمانها، ومن دُنياها التي رغبتها وارتضتها قبل أن يُجرِّدها من شرفها المسلوب.

لم يكن اغتصابًا جسديًّا بقدر ما كان اغتصابًا لكل ما هو طاهر وبريء في نفسها.

نهضتْ متثاقلة تنفض عنها غبارًا لم تعتده من قبل .. جرجرت نفسها، وجرَّت معها ذيول خيبتها وعارها .... طأطأت رأسها، وخفضت جناحها، وهامت على وجهها في ذلك الليل البهيم البائس.

تحسَّست طريقها على الأرض المخضبة بالوحل وسط هطول الأمطار الذي لم ينقطع وسط ومضات البرق وصوت الرعد.

كان هُطول الغيث وصوت زخَّاته من أسباب بهجتها، وكثيرًا ما أثار في نفسها نشوة وانتشاء، كانت تخرج أمام البيت وهي صغيرة تجري وتلهو تحت زخاته، وعندما أدركها الصِّبا كانت تصعد إلى سطح المنزل فتفعل كما كانت تفعل، وهي صغيرة لم تعبأ ببلل أو نزلات برد .. كان الشتاء فصل سعادتها، وزخاته دموع فرحها المنتظر ..... كم نسج خيالها خلاله من حكايات دافئة! زخات المطر كانت تغسل أعماقها وتطهرها كما تغسل أوراق.

أما الآن لماذا صار الغيث سوطًا على جسدها يؤلم ويلهب ولا يبرد؟!

لماذا تحوَّلت زخاته إبرًا تَخزُ جسدها وتُشرِّحه؟! .. وتساءلت: هل لزخاته الآن القدرة على غسل عار لحق بها رغمًا عنها؟ هل ما زال للغيث تلك القدرة على التطهير؟ هل سيُطهِرها من الوباء الذي أصابها أم أنه سيكون هلاكها؟

استمرَّت في سيرها وسط ظلام تلك الليلة الليلاء التي انهمرت فيها دموع السماء بلا هوادة أو رحمة، كأن الدنيا بسمائها وأرضها وبرقها ورعدها تبكي طُهرها المسلوب، وشرفها المغتصَب.

فهل كانت الدنيا تبكي ما فقدته حقا أو ترثيه ؟!!!!

زلَّت قدُمها في الوحل فانكفأت على وجهها في الطين، فبكت وانتحبت، ووجَّهت وجهها إلى السماء معاتبةً الله سبحانه وتعالى، فلم يكن يعلم بحالها

سواه، ولم يكن أحد غيره قادرًا على فَكِّ كَرْبها وتفريج همِّها وسترها، فرفعت بصرها إلى السماء الباكية، وهي تقول متضرعةً متوسلةً شاكية باكية:

– يا رب، لقد استجرتُ بكَ، وأنا أحوج ما أكون إليك، فلم تُجِرْني، ولم تعصمني منه.

– لم تكفنيه يا الله، ولم تكفني شَرَّه، ولم تصرف عني سوءه. لا حول ولا قوة إلا بك يا الله. إليك المشتكى .. اللهم لا اعتراض على قضائك. اللهم إني أبرأ اليك من فِعلته.

– استرني ولا تفضحني وتفضح أهلي وزوجي، فلا مهرب منك إلا إليك يا الله، يا ستار، يا سِتِّير، يا الله، يا أرحم الراحمين، وأعدل الحاكمين .. أنت وحدك حسبي ووكيلي يا الله، وكفى بك وكيلًا.

ضاقت عليها الأرض بما رَحُبت، وأدركت أنه لا منجى لها إلا الله، ولا مفر منه إلا إليه، وأنه وحده القادر أن يخرجها من سقطتها، فتوجَّهت إليه بكل جوارحها داعية راجية ملهوفة، مضطرة، منكسرة، وهي موقنة أنه لا جابر لكسرِها سواه.

اقتربت من باب الدار، وحمدت الله أنها وجدت باب المنزل الخارجي مفتوحًا، وكان ذلك من عادات أهل الريف، وكان باب شقة حماتها نصف مفتوح، فحاولت أن تتماسَك وتستجمع شتات نفسِها، وصَحِبت صوتَها

ابتسامة مصطنَعة عندما وقفت على باب شقة حماتها لتخبرها بقدومها وأنها ستصعد إلى شقتها لتبدل ثيابها المبتله، وتنام؛ لأنها متعبة جدًّا، ولا تستطيع تناول الطعام بناء على تعليمات طبيب الأسنان. وحمدت الله ثانية أن حماتها كانت في غرفة نومها، ولم تتبيَّن حالتها بسبب انقطاع الكهرباء.

صعدت زهرة الدرج وهي تتمتم بالثناء على الله الذي سترها، وما كادت تفتح باب شقتها حتى رأت باب شُرفتها مفتوحًا على مصراعيه، وأصص الزهور مكسورة وقد امتلأ المكان بحطامها وبالطين والفخار المكسور المتناثر في كل مكان.

ألقت نفسها على الأرض، وبكت كما لم تبكِ من قبل. تحوَّل جسدها إلى حُمم تفور كما يفور التنور. لم تعد تطيق خلايا جسدها التي استحلها ذلك الذئب البشري، كأن نارًا استعرت في جسدها.

تأوَّهت وصرخت بكل ما أوتيت من قوة، وهي تعلم أن صوت أنينها وصداه لن يعود إلا إليها هي فقط.

تقاذفتها أفكار متضاربة، فتارة تفكر في القصاص والانتقام منه، والتربص له وغرس خنجر في صدره، وتارة تفكر في إشعال النار فيه وفي سيارته.

راودتها أفكار انتقامية متعددة، ولكنها فَطِنَت إلى الحقيقة المُرة المؤكدة، وهي أنها لا تستطيع أن تُفضي بسرها لكائن من كان، ولا تملك إلا أن تكتم

مُصابها وما حدث لها، ولن تستطيع أن تنبس أو تتفوَّه بحرف واحدٍ مما حدث لها، وإلا تلحق العار بأبيها وزوجها.

تنبَّهت إلى أن سيرتها سيتشدق بها القاصي والداني، ولن ترحمها الألسنة .. سيطأطئ أبوها رأسه من الخزي الذي لحق به، وأن عار ما حدث لها سيُلاحقها ويلاحق أختيها طوال العمر، ولن يتقدم أيُّ رجلٍ للزواج بأختيها.

انتحب قلبُها، وحارت في أمرها، فخنجر الغدر الذي أدمى روحها ما زال يقطر دمًا، وما كان عليها إلا أن تتجرع كأس الحنظل وهي صامتة كسيرة، مكسورة القلب والخاطر، لا تستطيع أن تُشارك خبيئة صدرها ومأساتها مع أقرب الناس إلى قلبها.

كانت الضحية والذبيحة والمذبوحة والمكلومة في آن واحد، وما ضاعَفَ ألمها أكثر هو عدم قُدرتها على البوح أو الثأر.

أمسى وجهُه بكل قسماته وتفاصيله بالنسبة لها هو الدمامة والقُبح والدناءة في أحطِّ صورها. كان كابوسًا لا يفارق مخيلتها، ومثارًا لاشمئزازها وغثيانها.

لم يكن إلا وحشًا تجرَّد من إنسانيته وآدميته قبل أن يتجرَّد من ملابسه، لم يرحم ضعفها، ولم يرِّق لقلبها المنفطر، ودموعها المنهمرة، ونظراتها المتوسِّلة وعينيها الباكيتين.

لم يكن إلا مجرمًا آثمًا، لا يعرف قلبه الرحمة، ولا يراعي حرمة، ولا يأبه لعُرف أو دين .. خسته أحنت ظهرها، وكشفت سِترها وعورتها إلى يوم الدين.

لم تكن سليبة الإرادة حين سلبَها أمن حياتها إلى الأبد .. قاومت حتى خارت قُواها، لم تُظهِر طاعة ولا إذعانًا، بل أظهرت رفضًا وازدراء.

سحقها وأورثها غُصةً في القلب، وأنينًا في الروح لن يفارقها ما حييت.

نالت منها الأيام، وغلبتها الدنيا، وطعنتها يدُ القدر. لم تحتسب أن ذراع الغدر سيطوقها ويعتصر جسدها ويقهر روحها بقوته الغاشمة كما باغتها القدر بطعناته تلك الليلة.

جرجرت نفسها حتى دخلت إلى الحمام، ووقفت تحت صنبور المياه، عساها تغتسل وتتطهر مما عَلِقَ بها.

عندما خارت قواها ولو تعد قادرة على الوقوف تحت شلال المياه المتدفق افترشت أرض الحمام وهي منهارة، عاريةً باكيةً، لم يجف لها دمعٌ طوال ليلتها.

لم تهبط زهرة في الصباح الباكر لشقة حماتها كما اعتادت أن تفعل، فظنَّت حماتها أنها ربما تكون ما تزال مستغرقة في النوم بسبب عودتها في الجو الماطر العاصف في الليلة السابقة، أو ربما أصابتها وعكة صحية، أو نزلة برد، فتركتها تنال قسطًا من الراحة، وتنام حتى تحصل على القدر الكافي من النوم.

أعدَّت الحماة طعام الغداء، ولم تنزل زهرة، فبدأ القلق يتسرَّب إلى نفسها هي وزوجها، فصعدت إلى شقة زهرة، وطرقت بابها، ونادت زهرةَ، فلم تُجبها، فنادت زوجَها، فأحضر المفتاح الاحتياطي للشقة، وفتحا الباب فوجدا زهرة نائمة على فِراشها وحرارتها مرتفعة، والحمى تُلهِب جسدها، والعرق يتصبَّب من وجهها وباب الشرفة مفتوح على مصراعيه، وشظايا أصص الزهور متناثرة هنا وهناك.

الفصل الرابع

فتحت زهرة عينيها في ضعفٍ وهي تتفحص الوجوه المحيطة بها، عبَّرت عن دهشتها بصوتها المتهدج الضعيف هامسة:

- أين أنا؟ ماذا حدث؟

ردَّت أمُّها بصوت يتصنع البسمة ويغالب الدموع:

- أنت في بيتك يا حبيبتي .. حمدًا لله على سلامتك.

دخلت سميرة أخت أحمد الحجرة وهي تحمل صينية الطعام، وطلبت من زهرة أن تتناول القليل من الطعام حتى تسترد عافيتها.

ما انفكَّت سميرة تتودَّد إلى زهرة وتُمازحها حتى انتزعت بسمة خفيفة من بين شفتي زهرة وهي تقول لها:

- لا بد أن تتناولي المزيد من الحساء؛ لأن هناك من ينتظرك على أحرّ من الجمر.

ارتسمت على وجه زهرة ابتسامة باهتة، ردت على أثرها أمُّ أحمد وهي مستبشرة:

– الحمد لله أنك بخير .. لقد كان أحمد في غاية القلق، ولم يهنأ له بال منذ علم أنك مريضة، وكاد يفقد عقله عندما لم يتمكن من سماع صوتك.

قاطعت سميرة حديث والدتها، وهي تحاول أن تضفي جوًّا من البهجة:

– الحب، وما أدراك ما الحب يا أمي!

ورفعت يديها إلى السماء وهي تقول:

– اللهم ألقِ محبتي في قلب زوجي، كما ألقيتَ محبة زهرة في قلبي أخي أحمد.

رفعت سميرة يديها إلى السماء وهي تُردِّد:

– إوعدنا يا رب .. إوعدنا يا رب.

تعالت ضحكات الحضور، وتبادلوا القفشات والمزاح، وبينما هم على حالهم هذا رنَّ جرس الهاتف، فإذا به أحمد يسأل عن صحة زهرة، ويطمئن على أحوالها.

انصرف الجميع إلى الصالة حتى تستطيع زهرة أن تتحدث مع زوجها بمفردهما.

سألها عبر الهاتف:

- كيف أنت يا حبيبتي؟ كيف أصبحت؟

ردَّت في صوت منكسر هزيل:

- أنا بخير والحمد لله على كل حال.

واصل أحمد لهفته عليها مستطردًا:

- كنت قلقًا عليك للغاية، وكدت أجنُّ عندما أخبروني أنك محمومة، ولا تستطيعين مخاطبتي .. مزَّق القلق كبدي وانتزع فؤادي.. الحمد لله أنكِ بخير يا حبيبتي.

حاولت زهرة أن تُهدِّئ من روعه وتطمئنه عليها حين قالت له:

- لا داعي للقلق يا حبيبي .. فأنا الآن بخير والحمد لله. لقد كانت نوبة برد خفيفة، وقد تعافيتُ الآن .. لا حاجة للقلق.

ردَّ ضاحكًا:

- لن أصدق أنكِ تعافيتِ حتى تعودي لعادتنا، ولا تنامي إلا على حديثنا معًا على الفيس بوك.

ضحكت زهرة وردَّت:

- حسنًا يا حبيبي، سأفعل في أقرب وقتٍ إن شاء الله.

وتوالت الأيام.

دفنتْ زهرة بين جنباتها خبيئة ضاقت بها روحُها، وحاك بها صدرُها. ومضت في حياتها محاولةً أن تنسى أو تتناسى ما ألَّم بها ذات مساء مطير في ليل بهيم.

مَرَّ نحو شهرين بعد تلك الليلة الليلاء، واستسلمت زهرة لقضاء ربِّها، وحاولت بقدر استطاعتها أن تنسى وتتناسي ما حدث لها رغمًا عنها، وأن تُواصل حياتها كما اعتادت دون تغيير حتى لا يُفتضح أمرُها، ولكنها فشلت رغم جميع محاولاتها، فقد توارت ابتسامتُها، وشرد ذهنُها معظم الوقت، وكانت أيامًا كئيبة ثقيلة على نفسها، وكثيرًا ما استيقظت مفزوعة وجلة من نومها، فلم تفارقها الكوابيس منذ تلك الليلة.

تنبَّهت زهرة بعد مرور ما يقارب الشهرين لأمر جلل لم يخطر ببالها، فقد انقضى أكثر من شهر منذ حاضت آخر مرة، وقد حان موعد حيضها ولم تحض.. فزعت أشد الفزع لمجرد مرور ذلك الهاجس بخاطرها.

راودتها الظنون، ولم يتوقف خيالها الخصب عن ترويعها بكل السيناريوهات المحتملة لما قد تتعرض له حياتها البسيطة من هزات عنيفة قد تودي بحياة والديها، وقد تعصف بمستقبل أختيها، بالإضافة إلى تدمير زواجها، وتدنيس سمعتها، فزوجها مسافر منذ ثمانية أشهر، ولأنها لم تحمل من زوجها خلال الأشهر القليلة التي مكثها معها، فلم يخطر ببالها أن تحمل سِفاحًا من مغتصبها.

كتمتْ أمرها، وتربَّصت بنفسها أسبوعًا لعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا. مَرَّ هذا الأسبوع كأنه سنوات طويلة، وهي تترقَّب حالها وتتربَّص، وضُربت عليها الذِّلة والمسكنة، مذ لعبت برأسها الهواجس والظنون.

هَجَرَها النوم، فكانت تقضي ليلها متضرعة متوسلة راجية الله – تعالى – أن يُخرِجها من عثرتها، وأن يسترها، ويستر أهلها، ويُنقذ زواجها.

صلَّت كما لم تُصلِّ من قبل، سجدت بكل جوارحها خاشعة متضرعة، تفنَّنت في الدعاء والتوسل والرجاء.

ساء حالُها، وشحب لونُها، وانطفأ بريق عينيها، وبدأ اهل زوجها يلاحظون ما ألَمَّ بها من تغيُّر جُسماني ونفسي.

كانوا يفترشون الأرض وهم جالسون أمام مائدة طعامهم القصيرة عندما أشفقت عليها حماتها حين رأتها شاردة، شاحبة الوجه، وقالت لها وهي تُربت على ظهرها:

– ماذا بك يا ابنتي؟ لماذا هذا الذبول ؟

– ما الذي يُؤرِّقك ويعكر صفو حياتِك؟

ردَّت زهرة وقد علت وجهها ابتسامةٌ باهتة:

– أنا بخير والحمد لله .. لا داعي للقلق.

خرج حموها عن صمتِه مقترحًا:

- لماذا لا تذهبين إلى طبيب يراكِ حتى نطمئنَّ عليك؟

ردَّت زهرة:

- لا تقلق يا أبي، سأتعافى إن شاء الله قريبًا.

استطردت زهرة مخاطبة حماها:

- هل من الممكن أن تأذن لي بزيارة بيت والدي غدًا وقضاء النهار معهم.. إنني أفتقدهم بشدة خاصة جدتي.

ردَّ حموها وهو ينظر إلى زوجته:

- كما تشائين يا ابنتي، ولكن لا بد أن تعودي قبل المغرب.

ردَّت أمُّ أحمد مؤيدة كلامَ زوجها:

- كما تعلمين، زوجك لا يُرحِّب بمبيتك خارج المنزل، ولا يُرحِّب بخروجك إلا للضرورة القصوى.

هزَّت زهرة رأسها معبِّرة عن امتثالها لرغبتهما وهي تقول:

- إن شاء الله، سأكون هنا قبل غروب الشمس.

صعدت زهرة إلى شقتها بعد أن أنهت أعمالها المنزلية المعتادة في شقة حماتها، وقد عزمت أمرها أنها لا بد أن تضع حدًّا لحيرتها، وتتبيَّن حقيقة موقفها حتى تستطيع التصرُّف بحكمة وفقًا لما ستكشف عنه أحداث يومها التالي.

مع بواكير الصباح خرجت زهرة من بيت زوجها بعد أن استأذنت حماتها وحماها، لكنها بدلًا من أن تتوَّجه إلى بيت أهلها توجَّهت إلى مدينة المحمودية، وقبل تمام التاسعة صباحًا كانت أمام أحد معامل التحاليل.

ألقت زهرة تحية الصباح على موظفةٍ تجلس على مكتب خشبي في مدخل معمل التحاليل، وأخبرتها أنها تريد إجراء اختبار للحمل لمعرفة حملها من عدمِه.

فتحت الموظفة دفترًا أمامها، وأمسكت قلمًا ونظرت إليها مُستفسِرة:

– ما اسمك؟

ردَّت زهرة بسرعة الطالب وتحفزه، الذي أعدَّ نفسه جيدًا لاختبار يعرف أسئلته مسبقًا:

– أميرة عبد الستار.

تابَعت الموظفة:

– كم عمرك؟

ردَّت زهرة:

– ٢٢.

تابعت الموظفة:

– ما عنوانك؟

ردَّت زهرة:

- شارع الثورة بالمحمودية.

دوَّنت الموظفة البيانات المطلوبة، ثم طلبت من زهرة التوجُّه إلى إحدى الغرفات حتى يتمكن المختصُّ من أخذ عينة من دمها لفحصِها.

سحب الموظف المختص قطرات من دمها، وأخبرها أن تنتظر في الخارج، وأن عليها أن تنتظر نصف ساعة حتى تتمكَّن من معرفة نتيجة التحليل.

جلست زهرة كأنها قطة تتلظى فوق صفيح ساخن، تمتمت بكل ما تحفظه من أذكار .. ولم يتوقف لسانها عن الدعاء .. توجَّه قلبها إلى الله توجُّه الملهوف المضطر حَسن الظن بالله.

اضطربت أنفاسُها، وتزايد نبضُها، وارتعشت يداها، وبدأت تهزُّ قدميها، وهي تتمتم بذكر وتسبيح، وتطلب العون والغفران.

لم تلتفت لصوت الموظفة وهي تنادي:

- السيدة أميرة عبد الستار.

- السيدة أميرة عبد الستار؟

ارتفع صوت الموظفة وازدادت حِدَّتُه وهي تتوجَّه إليها:

- نتيجة تحليك ظهرت .. سيدة أميرة.

تنبَّهت أميرة كأنها صحت من غفوتها مستفسرة وهي تتوجَّس خيفة.

- حقًّا؟

- ما النتيجة؟

ردَّت الموظفة:

- النتيجة سلبية، مما يعني عدم وجود حمل للأسف.

قاطعتها زهرة قبل أن تُكمل كلامها.

- الحمد لله .. الحمد لله.

تعجَّبت الموظفة من ردة فعلها وقالت:

- ظننتُك ترغبين في الحمل!

تداركَت زهرة موقفها وردَّت:

- بالطبع أرغب في الحمل، ولكن زوجي طلب مني أن أتمهَّل قليلًا حتى ننعم بمزيد من الحب والمتعة قبل حلول الأطفال.

أبدت الموظفة تفهُّمها لما تقوله زهرة.

مدَّت زهرة يدها لتأخذ نتيجة التحليل وهي تشكر الموظفة وتودِّعها، وبينما هي تستدير لتتوجَّه نحو الباب كادت تصطدم بسيدة أربعينية.

ظهرت علامات الارتباك على وجه زهرة وهي تتفحص وجه السيدة متيقنة أنه وجه إحدى قريبات زوجها وجارتهم في بيت زوجها أيضًا السيدة نعيمة.

بادرت نعيمة بتحيتها قائلة:

- كيف حالك يا زهرة؟ وكيف حال حميك وحماتك؟

ردَّت زهرة متلعثمة مرتبكة:

- الحمد لله .. نحن جميعًا بخير.

باغتتها نعيمة بسؤالها:

- ماذا تفعلين هنا؟

ردَّت زهرة وهي مرتبكة وعيناها زائغتان:

- كنت أُجري تحليلًا بسيطًا، والحمد لله، كل الأمور على ما يُرام.

استطردت زهرة:

- بعد إذنك .. يجب أن أذهب الآن.

أسرعت زهرة بالخروج مُتملِّصةً متخلصة من نعيمة، قبل أن تفتح فمها لتهرب من فضولها وتطفُّلها.

كانت سعادة زهرة غامرة بنتيجة التحليل، ولكنها تنبَّهت إلى عدم نزول حيضها، وتأخُّره، فقررت أن تقطع الشك باليقين، وتذهب إلى طبيبة أمراض نساء لفحصها.

فحصت الطبيبة زهرة، وأخبرتها أن تأخُّر المحيض أمر طبيعي إذا كانت المرأة تمرُّ بظروف نفسية سيئة أو تتعرَّض لضغوط معينة، وقد يحدث النقيض

من ذلك تمامًا لبعض السيدات، فقد يحضن أكثر من مرة خلال الشهر لو عانين التوتُّرَ أو مررنَ بحالات نفسية سيئة.

تنفَّست زهرة الصُّعداء، وانشرح صدرها، وحمدت الله، وأثنت عليه كثيرًا؛ لأنه لم يخذلها وسَتَرَها.

بعد أن اطمأنَّ قلبُها قرَّرت الذهاب لبيت أهلها لقضاء بقية اليوم معهم كما أخبرت أهل زوجها.

سَعِدَ أهل الدار بزيارة زهرة لهم، ورحَّبوا بها ترحيبًا شديدًا، واحتفوا بها وأغدقوا عليها كرمًا وحبًّا وعطفًا، فسكنت نفسًا، واطمأنَّت وكادت أحضانهم الدافئة تُزيل من قلبها غُصة ما مرَّت به من عذابات وتمزُّق ومرارة خلال الأيام السابقة.

بينما كانت زهرة تنعم بأحضان أسرتها الدافئة وحفاوتهم بها علت أصوات المارة في الحارة، وتحوَّلت الأصوات العالية إلى صرخات وعويل.

أسرعَ أهل الدار بفتح النوافذ وباب الدار لمعرفة مصدر هذا العويل والنحيب، وعندما تبيَّنت الأسرة ما يحدث ارتفع الصُّراخ والنحيب.

لقي محمد جارهم زوج عتاب، وولد الحاج سالم حتفه؛ إثر تعرض سيارته نصف النقل لحادث تصادم مع جرار زراعي.

كسا الحزن جميع الوجوه، وبكت أمُّ محمد كالمجنونة في الشارع .. حملت تراب الشارع ووضعته فوق رأسها وهي تهذي بكلمات غير مفهومة.

سقطت عتاب على الأرض؛ فقد مات عريسها قبل أن يرى ثمرة زواجهما تخرج من أحشائها.

كان محمد ينتظر قدوم ابنه إلى الدنيا بفارغ الصبر. كان يتمنى إنجاب دستة من الذكور حتى يفرح سالم بأحفاده، ويُعوِّض ما فاته من إنجاب العديد والعديد من الذكور، حيث استأصلت زوجته رحمها بعد ولادة ابنه محمد بعامين، وكان قد مَنَّ الله عليهما قبله بفتاة.

كان هناك الكثير من الأحاديث الجانبية بين أهل القرية عن مصير عتاب أرملة محمد، ومصير جنينها بعد وفاة زوجها قبل توثيق عقد قرانهما.

طلبت زهرة من أمِّها مهاتفة حماتها لتطلب منها السماح لها بالمبيت مع أسرتها لعدم تمكُّن أبيها من توصيلها لانشغاله مع العم سالم وتوليه مسئولية كل ما يتعلق بإجراءات الجنازة والدفن ومراسم العزاء.

قبيل غروب شمس اليوم التالي أحضر عبده "توك توك"، ووصَّل ابنته إلى بيت زوجها، بعد أن أغدقت عليها عفاف وحمَّلت التوك توك بكل ما لذَّ وطاب من فواكه وحلوى ومشروبات وعصائر، وما تشتهيه الأنفس من الطيور والدواجن.

استوقف عبده التوك توك أمام دار صهره، واستمهله حتى يُلقي تحيته على أهل الدار، ولكنه فوجئ بحماة ابنته تخبره أن زوجها لا يستطيع مقابلته، وعلَّلت ذلك بمرضه الشديد المباغت الذي باغته اليوم دون سابق إنذار، وأنه

على وشك إجراء عملية جراحية خطيرة، وربما يستدعي ذلك استدعاء أحمد أو أخيه من السعودية؛ ليكون أحدهما بجوار والده وهو يُجري الجراحة.

لاحظت زهرة توتر حماتها وتلعثمها وهي تتحدث عن هذا المرض المُباغِت، ولكنها عَزَت ذلك إلى قلقها على زوجها الذي لم يكن سليمًا معافًى عندما تركته صباحًا.

عبَّر عبده عن حُزنه لتدهور الحالة الصحية المباغتة لصهره، وأبدى تعاطفًا واستعدادًا لرعايته في أثناء إجراء الجراحة، وأنه لا حاجة لإزعاج ولديه.

شكرته أمُّ أحمد، وأكدت له أنه لا بد من وجود أحد الأبناء لرعاية الوالد، خاصة أحمد، لأن أخاه لن يستطيع ترك أولاده وزوجته بمفردهم في السعودية.

مر أسبوع ..

كان موعد عودة أحمد، ولم تنم زهرة ليلتها من فرط سعادتها وشغفها لملاقاة زوجها، وتوجَّهت إلى المطبخ بعد صلاة الفجر لتعدَّ لزوجها كل ما لذَّ وطاب من الطعام والحلوى، وكل ما تتوق إليه نفسُه.

مرَّت الدقائق كساعات وهي تنتظر قدومه بشوقِ المحب الذي أضناه الاشتياق.

انتصف النهار، وكانت قد انتهت من تنظيف المنزل وإعداد طعام أحمد المفضَّل، فدخلت غرفتها، وبدَّلت ملابسها، وتزيَّنت، وبينما هي واقفة تتفقد زينتها أمام المرآة، سمعت أصواتًا صاخبة، وضجيجًا في الشارع.

أسرعت زهرة إلى شُرفتها، ونظرت فإذا بسيارة تقف أمام المنزل، وبجوار السيارة يقف أحمد ووالده ووالدته وصديقه عصام.

كاد قلبُها يطير من بين ضلوعه، عندما رأت عينيه تبحثان عنها، وعندما لم يجدها أمام ناظريه رفع رأسه للشُّرفة باسم الثغر، ثم رفع يده مُحييًا إياها.

بادلته زهرة التحية بكلتا يديها، وهرولت، وهبطت السلالم وهي لا تكاد تشعر بنفسها، وبوقع قدميها، وموضعيهما فهل هي تسير .. أم تقفز؟!

دخلت زهرة شقة حماتها، وجدت أحمد جالسًا على الأريكة وبجواره صديقه عصام، وحموها وحماتها.

مَدَّ أحمد يده إليها، وقال لها وعيناه تفيضان شوقًا:

- كيف حالك يا زهرة؟

ردَّت زهرة على استحياء:

- الحمد لله بخير ما دمتَ بخير .. حمدًا لله على سلامتك.

ردَّ أحمد وما يزال قابضًا على يديها:

- الله يسلمك.

نظرت سعدية إليهما وهي تقول بنبرة حادة موجِّهة حديثها إلى زهرة:

- كفاكِ هذا الآن يا زهرة.

تعجَّبت زهرة من نبرتها، وظلت صامتة وهي تنظر إلى وجه أحمد الذي لم يعبأ بحديث والدته التي استطردت:

- ضعي الطعام يا زهرة، لا بد أنه جائع.

ردَّت زهرة وهي تنزع يدها من يد زوجها:

- حاضر يا أمي.

بعد أن فرغوا من تناول الطعام، انصرف عصام بعد أن وعد أحمد أنه سيزوره في وقت لاحق؛ ليقصَّ عليه كل ما فاته من أحداث في القرية.

استجاب أحمد لرغبة والده، وصعد إلى شقته لينال قسطًا من الراحة قبل أن يتوافَد عليه الأصدقاء والجيران لرؤيته والترحيب بقدومه.

صعد أحمد وزهرة إلى عُشِّهما متشابكي الايدي، وبمجرد أن أغلق الباب خلفه .. جذب زهرة إلى صدره، وأخذ يُقبِّلها ويحتضنها وهو يقول لها:

- افتقدتُك بشدة يا حبيبتي.. أشتاق إليك أكثر مما تظنين.

ردت زهرة وهي تنظر إلى عينيه:

- أنا أيضًا أفتقدُك جدًّا، وأشتاق إليك جدًّا.

استمرت زهرة في تفقُّد ملامح وجهه وهي تقول:

- مرت الثواني كسنوات عجاف في غيابك يا .. أحمد، يعلم الله أنك لم تفارق خاطري برهة .. ويعلم الله كم كنتُ في أمسِّ الحاجة إلى وجودك.

تدحرجت دمعة من عينيها، وهي تتحدث وتحشرج صوتها بالبكاء.

مسح أحمد دمعتها بيديه وهو يُقبِّل وجنتيها متسائلًا:

- ماذا بكِ يا حبيبتي؟ لِمَ الدموع؟

ردت زهرة وقد علت وجهها ابتسامة:

- إنها دموع الفرح لقدومك يا حبيبي .. لا أصدِّق أنك معي الآن .. فقد اشتقت إليك بقدر المسافة التي كانت بينك وبيني.. أرجوك كفانا بُعدًا.

تنبهت زهرة إلى أنهما واقفان، وجذبت يده وهي تقول:

- لا بد أنك بحاجة إلى الراحة الآن.

تقدمته زهرة وفتحت باب حجرة النوم وأضاءت نور الحجرة.

ألقى أحمد جسده على السرير وهو يقول:

-ما أجمل العودة إلى المنزل يا زهرة! ما أجمل العودة إليكِ!

انزوى أحمد في طرف الفراش ليفسح لها مكانًا وهو يبسط ذراعه لها لتتوسَّده.

أذعنت زهرة وهي باسمة الثغر، وتوسدت ذراعه فضمَّها إليه بشغفٍ وحنان.

التصقت زهرة به، وتشبَّثت به بشدة، وتوسَّدت صدره، وتنفَّست الصعداء، وشعرت أن الحياة تدبُّ في أوصالها من جديد.

كانا عاشقين ينهلان الحب بنهمِ كُلِّ المحبين، وشغفِ كُلِّ المُلتاعين لعلهما يستعيضان عما كابداه في أيام الحرمَان من استبداد الشوق بهما.

فارتشفا الحبَّ حَدَّ الثمالة.

مر يومان..

كانت زهرة في حجرة نومِها تطوي بعض الملابس حين دخل أحمد، وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ جَمَعَ بين الجدِّ والصَّرامة والعبوس، وهو يقول لها بلهجة آمرة:

– هيَّا، جهِّزي نفسك .. سوف نذهب إلى زيارة والدك.

ردت زهرة في تعجُّب:

– لماذا نذهب الآن وقد كانوا جميعًا هنا أمس؟

ردَّ عليها بحدةٍ لم تعهدها من قبل:

– قلتُ لكِ هيَّا .. افعلي ما تُؤمرين به، وخذي معكِ بعض الملابس .. ربما تقضين هناك بعض الوقت.

ردَّت زهرة بصوت يتحشرج بالبكاء:

– هل حدث لأبي مكروه .. هل أصاب أختيَّ مكروهٌ؟

واصلت طرح الأسئلة، وعيناها ملأى بالدموع.

- هل ماتت أمي؟ هل ماتت جدتي؟

ردَّ عليها ببرود لم تعهده؛ مما زادها حيرةً وتوجُّسًا:

- جميعهم بخير .. لم يحدث لهم مكروه.

نظرت زهرة إلى وجهه، فأشاح بوجهه عنها ليتجنَّب ملاقاة عينيها.

أخرجت زهرة بعض الملابس من خزانتها، ويداها ترتجفان وتدور في رأسها عشرات الأسئلة:

جلس أحمد ينتظرها في الصالة حتى فرغت من تبديل ثيابها، وحملت حقيبتها، ووقفت أمامه دون أن تنبس بكلمة، فوقف وسار أمامها .. فتبعته وهو يهبط درجات السُّلم.

تدافعت الظنونُ إلى مخيلتها وهي تضع قدمها على العتبة الأخيرة المُواجِهة لشقة حماتها، فرأت حماتها وحماها ينظران إليها واجمين، ووراءهما تقف نعيمة مُنكَّسة الرأس.

تذكَّرت زهرة أنها قابلت نعيمة في معمل التحاليل، ولم يخطر ببالها حينها أن نعيمة من الممكن أن تتعقَّبها وتتجسَّس عليها وتشي بها.

تعثَّرت قدما زهرة، وكادت تقع على الأرض عندما دار بخلدها أنهم ربما أساؤوا الظن بها، واتَّهموها في شَرَفِها ظلمًا وبُهتانًا.

حارت زهرة في أمرها، ولم تدرِ ماذا تقول لتُزيل عن جسدها وطأة خطيئة لم تقترفها.. ماذا يمكن أن تقول لتبرِّئ نفسها من تهمة هي منها بريئة براءة الذئب من دم يوسف؟ ما الذي يمكن أن تقوله يمكن أن يزيل ما عَلِقَ بثوبها الأبيض من دنس؟ وهل سيصدقون أنها لم تكن إلا ضحية ذئب مفتقدٍ أدنى درجات الإنسانية اغتصب حياتها وكرامتها وكرامة أسرتها قبل شرفِها؟

آثرت زهرة الصمت، ومضت خلف زوجها المطعون في رجولته، المنصاع لأمر والديه، وتنبَّهت أن استقدام زوجها في غير موعده، وادِّعاء أبيه المرض، كان مؤامرة تمَّ تدبيرها بإتقان وحنكة لفضح أمرها أمام زوجها.

ركبت بجواره سيارة كانت تقف أمام المنزل .. انطلق السائق .. نظرت إلى وجه زوجها المحتقن والدموع تنهمر على وجنتيها.. فتجاهَل نظراتها ولم يأبه أو يرقَّ لدموعها المنهمرة، ونظراتها المتوسِّلة الراجية العالقة بوجهه.

خيَّم الصمت عليهما حتى وقفت السيارة أمام منزل والديها.

نزل أحمد من السيارة، وطرق الباب ففتحت عفاف الباب، وما كادت تبتسم في وجه زوج ابنتها حتى تبدَّلت بسمتها عبوسًا لَّما رأت عبوس وجهه، وأسرعت بسؤاله:

- ماذا هناك؟

أجاب أحمد:

- اسألي ابنتك.

نبَّهها إلى وجود زهرة خلفه.. فما كادت ترى وجه ابنتها حتى فطنت أن هناك ما يستدعي قلقها.

توجَّهت عفاف نحو ابنتها فاتحةً ذراعيها لها، فألقت زهرة نفسها في حضن أمها وهي تجهش بالبكاء.

دلفت عفاف المنزل وابنتها متكئة على كتفها، فأجلستها على الأريكة الموجودة في الصالة، ونظرت إلى زوج ابنتها الذي ما يزال واقفًا بجوار الباب وقالت بلهجة مستفسرة:

- ما الذي حدث لزهرة؟

- ماذا فعلت بها؟

-مما الذي أصابها؟

صرخت فيه لتحثَّه على الحديث، فلم يفتح فاه، ولم يتفوَّه بكلمة.

توجَّهت بنظرها إلى ابنتها بنظرات مستفسرة فلم تُجِبها.

خرج أحمد، وأغلق الباب خلفه، ولم يعِرهما اهتمامًا .. شعرت زهرة أن روحها رحلت برحيل أحمد .. نهضت مُسرِعة لتلحق به فسقطت عل الأرض مغشيًّا عليها.

الفصل الخامس

فتحت زهرة عينيها الذابلتين، فإذا هي مستلقية على فِراشها في غرفتها القديمة، محاطة بعيون جدتها ووالديها وأختيها .. عيونهم يُغلِّفها الحزن الممزوج بالدهشة والحيرة .. كان الصمت المُوحِش سيدًا للموقف.

آثر أهل الدار أن يتركوها حتى تتعافى، وتكون مُهيَّأة لتقصَّ عليهم ما يُؤرِّقُها.

مرت ثلاث ليالٍ وزهرة لا تبرح حُجرتها والدموع لا تُفارِق عينيها؛ ما قد زاد شُحوب وجهها.

في اليوم الرابع دخلت عفاف إلى حجرة زهرة، وهي تحمل في يدها صينية الطعام التي وضعتها جانبًا، ثم اقتربت من ابنتها، وجلست بجوارها، وربتت على كتفها، ثم أخذت يدها وقبَّلتها، وجذبت زهرة بحنو ورفقٍ إليها، فضمَّتها لصدرها وهي تقول لها:

– أما آن لك يا بنيتي أن تخبريني ما خطبك؟

استطردت عفاف مستنكرة صمت ابنتها:

- إن لم تخبري أمَّك فلمن إذًا تستطيعين أن تبوحي بكل ما يُؤرِّقُك؟ ماذا بك يا حبيبة قلبي؟ أخبريني بوجعيتك .. فلن ينصت إليكِ أحدٌ مثلي .. ولن يكترث بك أحد مثلي .. ولن يحتويك حضن مثل حضن أمِّك.

انفجرت زهرة بالبكاء وهي تلقي رأسها على كتف أمِّها وقد تحشرج صوتُها بالبكاء وهي تقول:

- سأخبرُك يا أمي بكل شيء.

خرجت عفاف من حجرة ابنتها والدموع تنهمر من عينيها، ولم تنبس بكلمة، كأن هول ما سمعته أخرسَها وشَلَّ أطرافها، فكانت تُجرجِر قدميها بصعوبةٍ، ولا تكاد تشعر بأطرافها.

حاولت عفاف أن تُلملم نفسها المبعثرة، وغسلت وجهها قبل أن تأوي إلى حجرتها، حيث كان زوجها في انتظارها متلهفًا لسماع ما ستقصُّه عليه، وكلُّ ما جال بخاطره أن خلافًا بسيطًا عاديًّا نشب بين زهرة وزوجها، ويمكنه بمجهود يسير، وكلمة طيبة أن يرأب الصدع، وتعود المياه إلى مجراها.

تجنَّبت عفاف عيني زوجها، كما تجنَّبت حديثها معه مُعلِّلة ذلك بأن زهرة لم تخبرها بشيء، وأنها مُرهقة، وتحتاج إلى قسطٍ من النوم.

ألقت عفاف جسدها الخائر على فِراشها، واستدارت حتى لا يبصر زوجها حيرتها ووجومها.. فما سمعته لم يكن هينًا عليها، وما تعرَّضت

له ابنتُها يستدعي التصرف برويَّةٍ وحكمةٍ؛ لأن عواقبه قد تكون وخيمة ومُدمِّرة لجميع أفراد الأسرة خاصة هناء وصفية، وقد يتهوَّر زوجها وتأخذه الحميَّة، فيأتي من الأفعال الطائشة في لحظة غضبٍ جارفٍ ما هو كفيل بزجِّه في غياهب السجن، وزج الأسرة بأكملها في غياهب الذُّل والانكسار مدى الحياة، بعد أن يصبح شرفهم جميعًا حديثًا تلوكه ألسنة نساء القرية.

لم تذق عفاف للنوم طعمًا طوال ليلتها؛ فقد لعبت الظنون والوساوس برأسها طوال الليل، ولم تهتدِ لفعلٍ رشيدٍ، وظلت تتقاذفها الظنون حتى سمعت أذان الفجر وصوت قدمي حماتها وهي تستعد للصلاة، فأدركت أن الجدة وحدها التي تستطيع أن تحسم هذا الأمر، فهي معروفة بحكمتها ورَوِيَّتها، وحُسن تدبُّرها للأمور، وهي الوحيدة القادرة على كَبْحِ جِماح ابنها؛ لأنه شديد البِرِّ بها، ويُجلُّها ويُوقِّرها، ولا يعصي لها أمرًا.

لم تمر أسرة عبده بليلة عصيبة ويوم مُروِّعٍ حزين كتلك الليلة، وهذا اليوم الذي علموا فيه هول ما تعرَّضت له زهرة دارهم وريحانتها، ولكن الجدة بحِكمتها ورَوِيَّتها، وحُسن تدبيرها استطاعت أن تهدِّئ من روع ولدها الوحيد الذي عندما علم بالأمر غلت الدماءُ في عروقه، وعَقَدَ العزم أن تكون حياة صبحي القصاص العادل لشرف ابنته المغتصَب، وهمَّ بالخروج من المنزل والذهاب إليه في عقر داره حاملًا ساطورًا كان معلقًا على حائط المطبخ، ولكن بكاء أمِّه، ونحيب زوجته وصراخهما وتوسلاتهما إليه منعته من الخروج، فخَرَّ جاثيًا على ركبتيه يبكي كطفلٍ كسيرٍ ذليلٍ أمام زوجته وأمِّه.

ضمَّته أمُّه إلى صدرها، وأخذت زوجتُه تبكي وهي تسند رأسها على ظهره.

أقنعته والدتُه أنه يحقُّ له الانتقام من صبحي وقتله والتمثيل بجسدِه بلا شفقةٍ أو رحمةٍ، ولا أحد يستطيع لَوْمَه أو توبيخه للاقتصاص منه، ولكن هناك ما يُكبِّل يده ويحول دون ذلك.

ظلَّت أمُّ عبده تذكِّره بأن الفضيحة في قريتهم لا تقتصر على الأفعال، ولكنها تكون في أحيان كثيرة مجرد كلام مفترًى، وإشاعات لا أساس لها من الصحة، وهم ليس لهم أبناء ذكور، وهو رجلهم الوحيد، ولن تجد بناته من يعولهنَّ أو يفكر حتى في الزواج بإحداهن أو مصاهرتهن إذا اقتص من صبحي، وتم سجنه، علاوة على ذلك، فستصبح سيرتهن مضغة في أفواه الناس، وحديثًا تلوكه الألسنة، وعلكة في أفواه النسوة اللائي يفترشن المصاطب وعَتَبات البيوت في حواري القرية وأزقتها، القرى المجاورة.

كان حديثُ الأمِّ مؤلمًا، ولكنه كان كالمسكِّن المؤقت الذي لا بد أن يتجرَّعه عبده حتى يتأنَّى ويفكِّر في مصير بناتِه، إذا قرَّر القصاص من صبحي.

لم تسمح الأمُّ لعبده بالانصراف من جوارها إلا بعد أن أقسم لها قسمًا لا حنث فيه ألَّا يتهور أو يتصرف دون الرجوع إليها، وأن يضع مصلحة بناته وسُمعتهن نُصب عينيه، وأن يتكتَّم الأمر حتى لا يُفتضح أمرُ ابنته.

استطاعت الأم أن تثني ولدها عمَّا أقدمَ عليه، فعدلَ عن رأيه وآثر الصبر والانتظار لعل الله يجد له مخرجًا من حيث لا يدري ولا يحتسب.

طال انتظار زهرة لعودة أحمد إليها؛ فقد أصبح الانتظار روتينها اليومي، وكانت تتحسس وجعها ليلًا حين يغالبها الحنين إليه، وكان حنينها إليه كالوحش الذي يزداد توحُّشًا وفتكًا بها لحظة بعد أخرى، فيؤرِّق لحظات يقظتها ومضجعها، ولكنه كان انتظار من لا يأتي.

مَرَّ أسبوع آخر وهي تتلهف لكلمة أو رسالة تصلها منه. تتفقَّد هاتفها بين لحظة وأخرى بنظرات زائغة، وذهن غائب لعله يهاتفها أو يرقُّ قلبُه لها .. وكم من مرات شهقت في أثناء نومها المتقطع لفراقه! وكم ذرفت من دموع اشتياقًا إليه! كم من وجيعة كابدت لكونها ضحية لا تملك حتى الدفاع عن نفسها أو الزود عن شرفها الملطخ ووضعها موضع شبُهة هي أبعد ما تكون عنها!

كان حنينها إليه يقتلها ويفتك بها كل ليلة بعد نهار كامل طويل من الكبرياء وتصنُّع الصبر. كان حنينها واشتياقها إليه مؤلمًا لتخليه عنها، فترك لها وخزًا في قلبها، وحزنًا استعمر روحها، وندبات شوَّهت جدار روحها المحمل بعبق ذكرياتها معه.

استيقظت زهرة من نومها، وقد عقدت عزمها ألَّا تستسلم لوضعها الراهن، وألا تستسيغ دور الضحية المستكينة إلى الأبد، وأقنعت نفسها أنها لا ينبغي لها أن تستسلم، وألَّا تترك نفسها رهينة تحت وطأة قدرٍ غاشم أو ظروف جائرة، فنادت أختها هناء، وطلبت منها أن تسدي لها خدمة، وأن تساعدها على الخروج من المنزل خلسة لبعض الوقت دون علم أحد.

تعجَّبت هناء من طلب زهرة، وأخبرتها أن وضعها الحالي لا يسمح بخروجها من المنزل دون سببٍ وجيه.

نجحت زهرة بصعوبة في إقناع هناء بحاجتها الشديدة والمُلحَّة في الخروج من المنزل، وأن عليها أن تُحارب من أجل استعادة ما سُرق منها، وإن لم تفلح مساعيها لاستعادة زوجها فيكفيها فخرًا شرفُ المحاولة، وستكون نفسها أكثر رضا وتقبُّلًا لأي أحداث مستقبلية ستؤول إليها حياتها أو ستنسجها يَدُ القدر.

وافقت هناء على مساعدتها بشرط ألَّا تخرج وحدها وأن تُرافقها.

نجحت الفتاتان في ترتيب أمر خروجهما خلسة بمساعدة الأخت الصغرى، حيث كانت عفاف في زيارة لجارتها المريضة التي اعتادت أن تطيل البقاء عندها يوميًّا، وتقوم ببعض الأعمال المنزلية، وطهو الطعام لها ولأسرتها حتى تتعافى.

خرجت زهرة من الدار برفقة شقيقتها .. وحرصت على إخفاء ملامحها بالنظارة الشمسية كبيرة الحجم، وإسدال طرف طرحتها على وجهها، وقصدت المكان الذي اعتاد أحمد أن يرتاده كلما ضاقت به الدنيا أو أراد الاختلاء بنفسه الذي اصطحبها إليه عدة مرات، حيث شجرة الجميز الوارفة تتوسط أشجار التوت على ضفة نهر النيل، وكان قد أخبرها مرات عديدة قبل ذلك أنه لا يجد راحته وسكينة نفسه إلا في هذا المكان.

نزلت زهرة من التوك توك، وطلبت من هناء أن تنتظرها حتى ترجع، و توجَّهت إلى تلك الشجرة، وقبل أن تصل إليها بمسافة ليست قصيرة لمحت شخصًا يتكئ على الشجرة، فتقدَّمت نحوه عندما تيقنت أنه زوجها . اقتربت أكثر وأكثر، لكنه لم يشعر بها، فقد كان مُطرِقًا صامتًا شارد الذهن، ومستغرقًا في عالمه الخاص.

وقفت زهرة خلفه، لم تُحرِّك ساكنًا، وعيناها تفيضان دموعًا كلما حاولت فتح فيها لمخاطبته أو النطق باسمه تلعثمت، ولم تستطع أن تنبس بكلمة .. ظلت هكذا لحظات حتى تنبَّه إلى وجود شخص خلفه .. انتباتها حالة من الصمت ربما دقيقة ... دقيقتين .. وربما أكثر، ولَم تعرف لحظتها ماذا يمكنها أن تقول له لتجعله يرقُّ لحالها، ولكنها كانت تُدرِكُ أن هذه فُرصتها الوحيدة والأخيرة لاستعادته.

أدارَ أحمد لها ظهره، وأشاح بوجهه عنها متسائلًا عن سبب قُدومها:

– لماذا أنتِ هنا وماذا تريدين؟

ردَّت زهرة بصوتٍ مُتهدِّج مستعطِف:

– أعلم أنك لا تريد رؤيتي، ولكن كان لا بد أن أحضر، وأخبرك بكل شيء حتى لا تسيء الظن بي، ولا تُصدِّر عليَّ حُكمًا دون سماع أقوالي.

قاطعها أحمد في حدةٍ وصرامة:

– لا أريد أن أسمع أو أعرف أي شيء .. يكفيني ما سمعتُه من أهل داري وأهلي.

ردَّت زهرة بصوت متوسِّلٍ يملؤه الرجاء:

– ولكن ألا يحقُّ للمتهم أن يدافع عن نفسه؟ أرجو ألَّا تأخذك العزة بذكورتك وأن يتسع صدرُك لسماعي... بعدها لك حرية التصرف، ولن أفرض نفسي عليك مرة أخرى.

انتظرت ردَّه، لكنه ظل صامتًا مُطرِقًا مما دفعها لتقول له:

– يشهد الله أنني لم أخنك قط، ويعلم الله أني لم أعرف رجلًا سواك، وأنت تعلم مقدار حبي لك، فلا تكن قاسيًا وتُصدِّق كلام الوُشاة، وقد كنتُ لك الزوجة المُثلى .. التي لم ولن تعصي لك أمرًا .. كنت وسأظل طوع بنانِك.

قاطعها أحمد بحدةٍ بطرح سؤال كانت تتوقَّعه وتخشاه وتمنَّت ألَّا يطرحه عليها:

– هل أجريتِ تحليلًا للحمل؟

صمتتْ زهرة ولم تُجِبْ.

ازداد صوتُه حدةً، وهو يطلب منها أن تجيبه، فردَّت عليه بنبرةٍ مُتهدِّجة باكية مستجدية، وهي تلقي جسدها المضطرب المرتعش على الأرض، وقد خارت قُواها، وعجزت ساقاها على حملها:

– آن لك أن تعرف حقيقة الأمر، ثم تُحكِّم قلبَك وعقلَك وضميرَك، فقد خارت قوايَ، ولا أقوى على حمل ذلك وحدي، لقد اغتصبَ شخصٌ حياتي كلها رغمًا عني.

بدا أحمد جامد الحِسِّ، مُتبلِّد المشاعر، لم يتأثر بنحيبها وتشنجاتها، وبدأت تقصُّ عليه ما حدث لها تلك الليلة الغبراء، ولكنها لم تخبره بهوية المغتصب اشفاقًا عليه، ظنًّا منها أنه قد يحاول الثأر لشرفِه، فيُسجن من ناحية، وتتعرض هي وأسرتها لفضيحة مُدوِّية من ناحية أخرى.

حاول انتزاع اسم الجاني منها، لكنها أنكرت معرفتها به، وذكرت له أنها كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأته فيها.

توقَّفت زهرة عن الحديث، لكن عينيها لم تتوقفان عن ذرف الدموع الملتهبة التي ألهبت وجنتيها وزادتهما احتقانًا، ولكن زوجها ظلَّ ساخطًا قاسي النظرات، وازداد صوته حدةً وغضبًا وهو يقول لها:

– حتى لو صدَّقتُ قصتك تلك، وكنتِ ضحية كما تزعمين، فأنا لا أقبل أن أعيش مع زوجةٍ مُغتصبَة. ماذا سأقول لأبي ولأخي بعد أن افتُضح أمرُك؟

لن يصدقني أو يصدقك أحد. هذا خطؤك وحدك، وعليك أن تتحمليه وحدك، ولا يستطيع أي رجل مهما تكن قُوَّته أن يتمكن من امرأة إلا إذا سمحت له بذلك، ومنحته الضوء الأخضر، وشجَّعته على ذلك بقصدٍ أو دون قصد.

لقد انتهى ما كان بيننا الآن، وستصلك ورقةُ الطلاق خلال ساعات.

ألقى تلك الكلمات العنيفة على مسامعها، وانصرف بعيدًا، ولم يأبه بها.

زفرت زهرة زفرة انشقَّ لها صدرُها، وانخلع لها قلبُها من بين ضلوعه، وأدركت أنها عبثًا جاءت، وعبثًا تحدَّثت، وعبثًا كانت مُحاولاتها لاسترضائه واسترداده.

حينها علمت أن تلك هي لحظة الفِراق التي ليس لها رجعة، وليس بعدها عودة، فقد وصلت مع زوجها إلى مُفترق الطُّرق، ونقطة اللاعودة.

لم تتركه طوعًا، بل هو الذي تخلَّى عنها، وهو مَن تركها، وخذلها، ولم يمنحنها حتى حقَّها في الإنصات لها، والتحقُّق من صِدق حديثها، بل لفظها بقوة دون شفقةٍ أو رحمةٍ، ودون اعتبار لما كان بينهما يومًا ما.

لقد ساهَم في جلد الضحية، ولم يُبالِ بألمها وتأوُّهاتها، وهي مَن ظنَّت أنه مركب نجاتِها، وسفينتها وشِراعها، فكان هو هلاكها، كانت ردة فِعله وتخليه عنها أقسى من اغتصابها وانتهاك جسدها.

شعرت كأنها لم تعرفه قط، ولم تَرَه من قبل قط، أحست بمدى سذاجتها وجهلها بحقيقة الأشخاص، وكيف تمَّ خداعُها من الجميع بسهولة.

هل كان كل ما يلزمها أن تبتعد قليلًا لتراه على طبيعته، وترى له وجهًا آخر لم تره من قبل، بل إنها حتى لم تتخيَّل يومًا أن يكون قاسيًا إلى هذا الحد.

حقًّا إن الاقتراب من بعض البشر كالاقتراب من اللوحات الفنية، كلما اقتربت أكثر افتقدت الموضوعية. الالتصاق يؤدي إلى تشوُّه الرؤية، وأحيانًا

انعدامها. ابتعد رويدًا رويدًا حتى ترى اللوحة من كل الأركان والزوايا، قد ترى أشياء كثيرة غفلتَ عنها، وقد تُصدم عندما تكتشف وجوهًا أخرى، وأبعادًا أخرى لكل شخصيةٍ، وتنظر إلى الشخص كأنك تتعرف إليه للمرة الأولى، وربما الأخيرة.

لا تلتصق كثيرًا حتى لا تُخدع كثيرًا، حتى لا تفقد الرؤية أو التمحيص. إن الإحاطة تتطلب الابتعاد قليلًا، وقد يكون الابتعاد اضطراريًّا لا دخل للإنسان فيه، ولكنه يمنحه المزيد من الرؤية والشفافية رغمًا عنه.

في المساء تم الانتهاء من إجراءات الطلاق، وسط أجواء من التكتُّم حرصت عليها الأسرتان، وتم الاتفاق على أن تكون الإجابة الوحيدة للمتطفلين بشأن أسباب الطلاق هي انقطاع النصيب.

انفطر قلب زهرة، وضُربت عليها الذِّلة و المسكنة أسابيع طويلة، فكان ليلها تقلُّبًا على جمر، ونهارها صمتًا موحشًا وانزواء على فِراشها في ظلام غرفتها، وكانت تنهر من يحاول إنارة الغرفة أو فتح نافذتها، وترفض تبادُل أطراف الحديث مع أحد.. لقد آثرت الصمت، فما مرَّت به لا يُحكى، وما كانت النتيجة عندما حكت وباحت بما ضاق به صدرُها! لقد تخلى عنها أقربُ الناس إليها، ولم يكترث حتى بما تعرَّضت له من اغتصاب، وقهر.. إنه حتى لم يرحم انكسارها، ولم يمدّ لها يدَه وهي في قمة احتياجها إليه .. وكم طرحت من أسئلة لم تجد لها إجابة حتى ادعاءات أحمد بحبِّها كانت أوهامًا لا أساس لها من الصحة، وكان الوجع موجعًا بقدر حبِّها له ويقينها

أنه سيكون لها نِعم السَّند .. ظنَّت أنه سيكون لها الأخ والصديق قبل الزوج، ولكن القسوة إذا جاءت ممن أغدقت عليه من نفسها ووضعته موضع الروح من الجسد، تكون أكثر إيلامًا لها وأكثر حُرقةً لنفسها.

تساءلت مرارًا وتكرارًا: لماذا لم يكن الحب كافيًا لتجاوُز حاجز الشكِّ؟ لِمَ لَمْ يكن كافيًا لتخطي هذا الموقف والخروج منه بأقل الخسائر؟ وما ضير الدنيَا إذا منحتْ كل إنسانٍ مُبتغاه ومُراده؟ هل سيضير ذلك أحدًا؟ هل ستنتقص سعادة أحد إذا سعد بقية الخلق؟ لماذا وُجد الشقاء؟ ولماذا خُلق الألم؟ ولماذا وُجد الظلم؟ ولماذا كانت هي بالذات من دون البشر من تعرَّضت لكل هذا؟ ولِمَ كان عليها أن تعاني وتكابد كل هذا؟! ألف لماذا ولماذا لم تجد لها في رأسها إجابة.

تناثرت أجزاؤها، و تبعثرت نفسها إلى أشلاء .. رأت نفسها بائسة يائسة مهزومة، فقد بطشت بها الحياة بطشًا مؤلمًا، وهزمتها الدنيا وأشبعتها خذلانًا وقهرًا وكمدًا.

ذبلَ وجهُها وعودها، وانطفأ سراج رُوحها، وأصبح القنوط رفيق دربها.

باءت محاولات أهل الدار إنهاء حالة العزلة التي فرضتها على نفسها بالفشل مراتٍ ومرات، ولكنهم لم يقنطوا من تكرار المحاولات ورأوا أنه آن الوقتُ لخروجها من محبسها الانفرادي في غرفتها، واتفقوا على أن الجدة

والأم عليها التحدث معها وإخراجها من غرفتها، وبالفعل دخلت الأم والجدة الغرفة، وأضاءت الأم مصباح الحجرة، وجلست الجدة على طرف سرير زهرة، وجلست الأم بجوار زهرة واحتضنتها وقبَّلتها، وأخبرتها أن جدتها لديها ما تودُّ قوله لها، وتركتهما بمفردهما وخرجت.

قالت لها الجدة بصوتٍ حانٍ:

– لا شكَّ أن ما مررتِ به يا ابنتي كان قاسيًا ومؤلمًا جدًّا، ولكن لا مفر من قدر الله وقضاء الله، وليس لنا إلا أن نصبر ونحتسب، ويجب أن تعلمي أن الدنيا لا تتوقف على أحدٍ بعينه، ولا تقف عند أول مشكلة تواجهنا.

ردَّت زهرة بنبرة ضعيفة بائسة:

– ماذا عساي أن أفعل، وقد انتهت حياتي، ودُمر مستقبلي، أنا الآن بلا حياة ولا مستقبل.

ربتت على كتفها الجدةُ وهي تقول:

– ما حدث لك يا بُنيتي ما هو إلا ابتلاء واختبار من الله – تعالى – ليختبر مدى صبرك على البلاء، ويعلم مِقدار رضاك بقضائه.

ردَّت زهرة بصوت تمتزج به الدموع والأنين:

– لكنني ظُلمت يا جدتي دون أن أقترف ما يدعو لذلك، ولا أملك يا جدتي إلا الدعاء على من أجرم بحقي أن يفضح الله عِرضه ويهتك سِتره.

ردَّت عليها جدتُها وهي تمسح دموع حفيدتها المنهمرة وهي تضمها إليها:

– الظلم ظلمات يا زهرة، ودعوة المظلوم لا تُرد، وحقُّك لن يذهب هباء أبدًا، ولا ريب أن الله سيقتصُّ لك من ذلك المجرم يومًا ما .. أما بخصوص طلاقك، فلا شك أن عيشك انقطع مع هذا الرجل، وأنه لم يعد لك رزق في هذه الدار، ولا ريب أيضًا أن الله سيعوِّضُك خيرًا إن شاء الله، وسيرزقك بمن هو أفضل منه.

ردت زهرة بعفوية:

– ولكني لم أكن أريد زوجًا غيره يا جدتي.

قالت الجدة:

– لقد تخلَّى عنك يا زهرة، ولم يهتم لأمرك، فأكرمي نفسك عنه.. لا تتشبثي إلا بمن يتشبث بك ويحارب من أجلك.. أنت ما زلتِ صغيرة وجميلة، والدنيا كلها أمامك، وعسى الله أن يعوِّضك برجلٍ يكونَ لك نِعم العون والسَّند..... انسيه يا بُنيتي، وانسي كل ما يتعلق به، وإياكِ أن تشتري من باعك بثمن بخس عندما صفعتك الدنيا أول صفعاتِها.

كان لحديث الجدة أكبر الأثر في نفس زهرة التي بدأت تقنع نفسها أنها لم يكن بوسعها فعل أي شيء لإنقاذ زواجها وترميم ما حدث لحياتها من صدع، وأدركت أن الحياة تمضي شاءت أم أبت، بها وبدونها، وبوجود أحمد في حياتها أو بعدم وجوده، وأنه هو من قرَّر الرحيل.

رويدًا رويدًا بدأت زهرة تستجيب لمحاولات أهل دارها بعودتها للاندماج معهم، وعودة البسمة إلى وجهها، والبهجة والبريق إلى هاتين العينين الدامعتين. لكن الوضع لم يكن بتلك البساطة التي أوحى لها بها أهلُ دارها في محاولاتهم لانتشالها من حالة البؤس والقنوط التي وقعت فريسة لها، فوضعها الآن غير ما قبله، فهي الآن سيدة مطلقة رغم حداثة سِنِّها وجمالها الأخاذ، والمطلقة لا ينظر إليها أهل الريف وأهل قريتها سوى تلك النظرة لامرأة نفد صبرها، ولم تستطع أن تتحمل، فهي المسئولة عن فشلها في حياتها وهَدْم أركان الأسرة، حتى لو كان الزوج مستهترًا عابثًا خائنًا، فعليها أن تتحمله، وتتحمل حماقاته، وتتحول إلى قطعة من الإسفنج تمتص كل إساءاته وهي منشرحة الصدر، باسمة الثغر، فمسئولية استمرار الحياة الزوجية أو عدم استمرارها تقع وفقًا لما توارثوه من معتقدات وأفكار بالية على عاتق الزوجة وحدها وفقًا للمثل الشعبي الشائع بينهم: "من يقع في حفرة فليسدها برأسه"، وكذلك المثل الذي يقول: "لا تأكل خبز الرجل إلا امرأة تُشمِّر عن ساعدها".

احتوت أسرة زهرة رغم رِقَّة حالهم ابنتهم المطلقة، ولم يضيِّقوا عليها الخناق على قدر استطاعتهم، رغم كونها مطلقة، وهي ليست مجرد مطلقة عادية، لكنها مطلقة مُغتصبَة، وكانوا يعلمون جيدًا أن المطلقة يتربص بها المتربصون والطامعون، ويعتقدون أنها صيد سهل يمكن الإيقاع بها في براثن

العابثين من الرجال معدومي الضمير، وزهرة مطلقة جميلة، يانعة الصبا؛ مما دفع الجميع إلى توخي الحذر حمايةً لها، وحرصًا على حياتها المستقبلية.

شعرت زهرة أن الدنيا تشيح بوجهها عنها، ولم تعد تمتلك ناصية أمرها كالسابق، حُرمت الخروج بمفردها إلى أي مكان، حتى خروجها مع والدتها وأخوتها كان يُسبِّب لها الضيق والضجر لما كانت تلاقيه من ردود أفعال غريبة ومتناقضة ممن يحيطْنَ بها من النسوة، فمن يحبونها ويهتمون لأمرها يُظهِرون الشفقة والتحسُّر، ويلعنون الحظ العاثر، والدنيا الغادرة التي حرمت تلك المسكينة حياةً زوجيةً هانئةً، وكثيرًا ما ذبحتها نظراتُ الشفقة في عيونهم، أما الحاقدون الحاسدون فكانت ترى نظرات الشماتة والسُّخرية مما آلت إليه حياة تلك الجميلة التي رفضت كل من تقدَّم إليها من خيرة شباب القرية.

بدأت زهرة تنظر حولها، وتُقارن بين حالها وحال الكثيرات من فتيات القرية، فتجد أن حالها ربما كان أفضل من حال الكثيرات، وأدركت مما يتوارد إلى أذنيها أن خلف كل بابٍ حكاية وقصة قد تكون أكثر وجعًا من قصتها.

كانت ترى عِتاب أرملة أحمد تحمل طفلها بعد ولادته يتيمًا، ولا تستطيع حتى نسبه لوالده الراحل.

رأت الكراهية والخذلان في وجه عِتاب التي خذلها الزمن وغدرت بها الأيام، ولم يكن أمامها حلٌّ إلا التحايُل على الشرع والقانون كما نصح البعض من ذوي الخبرة سالمًا بأن ينتظر حتى تصل عتاب إلى سِنِّ الثامنة

عشرة، ويعقد قِرانه عليها عقدًا صوريًّا حتى يتمكن من نسب حفيده له، ليس كونه حفيدًا بل ابنًا له، ثم بعد مدة متَّفق عليها يتم الطلاق وتوثيقه في الأوراق الرسمية.

لم يكن أمامهم خيار آخر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه كي يتم تسجيل الطفل في الدفاتر الحكومية الرسمية، وإصدار شهادة ميلاد له ضمانًا لمستقبله ومستقبل أمه.

لم يمضِ وقت طويل، وبدأ العرسان يطرقون باب دار زهرة من جديد، ولكن نوعية الطارقين تغيَّرت، فهي ذاتها تغيَّرت، وأصبحت ثيبًا؛ ولذلك كان الخاطب إما أرملًا أو مطلقًا أو من أصحاب العاهات أو طاعنًا في السنِّ، أو ممن سرقته الدنيا وخطوبها وفاته قِطار الزواج.

رفضت زهرة جميع من تقدَّموا لخطبتها بحجة أنها ليست مؤهَّلة نفسيًّا للزواج في الوقت الحالي، وأخبرت والدها أنها لن تتزوج ثانيةً حتى تندمل جراحها، لكنها ما لبثت أن عدلت عن موقفها حين وصل إلى مسامع الأسرة أن أحمد تزوج بإحدى قريباته.

أدركت زهرة أنه لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب، وأنه لا جدوى من التحسُّر على ما فات، فقد ولَّى وفات، ولا توجد فرصة لاستعادته، ولا بد لها أن تتصالح مع نفسها وظروفها وقَدَرها، وما آلت إليه حياتها، وأن ما حدث لها كان اختبارًا سماويًّا، ورغم أن ما حدث لها فاق وتعدى حكايات الجدة المثيرة التي كانت تقصُّها على مسامعهنَّ في ليالي الشتاء القارسة الطويلة

من حواديت تتحدث عن الظلم والقهر والطغيان فلربما تأتي النهاية أيضًا بما يُثلج صدرها بما يفوق نهايات حكايات جدتها ذات النهايات السعيدة.

الحياة تستمرُّ ولا تتوقف عند أحدٍ، ولا تنتهي برحيل أحدٍ، ربما نواجِه قسوتها حين تغمد سِهامها وتشقُّ صدورنا وتأكل حشاشة قلوبنا، ولكننا رغم تعثُّرنا علينا النهوض من جديد، فلا يمكن العيش طويلًا في كنف الخوف، ولا غياهب الحيرة، وقوقعة الريبة، فكان لزامًا على زهرة أن تنفض عن روحها غبار الهزيمة، وتنتزع من صدرها سهمي الغدر والخذلان المرشوقين فيه.

تَمَّت خطبة زهرة من جديد لأحد أبناء قريتها خطبةً تقليدية لم تُفرحها أو تبعث البهجة في نفسها، وكان الخاطب شابًّا ينبئ مخبره عن صلاح خُلقٍ وتديُّن، وكان قد كبرت سنُّه حتى شارفَ على الأربعين لضيق ذات اليد، حيث ينحدر من أسرة فقيرة، ولا يكفيه ما يتقاضاه من عمله بائعًا في إحدى المحلات التجارية على الزواج من بكرٍ، فبحث عن البديل المتاح، ففكر في الارتباط من ثيِّب حتى يحدَّ من وطأة نفقات العرس، فقَبِلَ به أهل الدار على مضض؛ لأنه كان الوحيد ممن تقدموا لخطبة ابنتهم الذي لم يسبق له الزواج من قبل، وما عداه كان إما مطلقًا ولديه ثُلة من الأطفال أو أرملًا ولديه أطفال أيضًا، أو مُسنًّا مريضًا لا يروي ظمأ أنثى.

ارتضت زهرة خطبتها وحياتها الجديدة بنفسٍ راضية بقضاء الله وتدبيره، ولكن لم تأتِ الرياح بما تشتهي السفن، فوالدة خطيبها كثيرًا ما أظهرت

امتعاضًا وضجرًا من كون زهرة مطلقة، وليست بكرًا، وأنها ليست العطية المناسبة التي جادت بها الدنيا على ولدها، وكانت تلقي بكثير من العبارات الجارحة المتأفِّفة على مسامع زهرة وأهلها، وهي تمصمص شفتيها وتعوج فمها.

صبرت زهرة على كلمات أم خطيبها، وحاولت أن تكسب ودَّها، وظنَّت أن الأيام كفيلة بأن تكتسب ودَّها ومحبتها يومًا ما.

صبرت زهرة على الكلمات المسمومة الجارحة، ولكنها لم تستطع صبرًا على طمع خطيبها في جسدها، وتُحرُّشه المبتذَل بها كلما سنحت له الفرصة.. نهرته أكثر من مرة ولكن بلا جدوى .. كان يتفنن في اقتناص الفرص لكي تطول يده ويتلمس جسدها بطريقة أثارت اشمئزازها، وعندما وبَّخته وعنَّفته على تماديه وتخطيه حدود اللياقة وتجرُّئه عليها .. أعلنها لها صريحة بوقاحة وقبح، وقال لها وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

– أنت مطلقة .. ولستِ بكرًا و... أنا خطيبك، وقرأت الفاتحة مع أهلِكِ، والفاتحة في عُرفنا تعدُّ زواجًا مكتملَ الأركان؛ ولذلك فأنت الآن زوجة لي أمام الجميع.

كان جالسًا على الأريكة المقابلة لها، فقام وجلس بجوارها، والتصق بها ويده تتحسَّس ظهرها، فشعرت بقشعريرة تسري في جسدها، فانتفضت ووثبت من مجلسها، وجلست بعيدًا عنه.

حاول تهدئتها حتى لا ترفع صوتها ويُفتضح أمرُه بين أهلها، وقال لها بنبرة المتوسِّل:

- أنا أحبُّك يا زهرة، وتعلمين أن ظروفي المادية صعبة .. وأمامنا شهور حتى نتزوج، فلماذا لا نحاول الاقتراب أكثر حتى تتوطد علاقتنا، ويفهم كل منا الآخر بطريقةٍ أفضل.

صمتت زهرة وهي تنظر إليه نظرة مبهمة حاول تفسيرها ليكمل حديثه في ضوء تلك النظرة، ولكنه فشل في تفسيرها، فأكمل حديثه وقد ازدادت نبرته حنوًا:

- لن يضيرك أن تلبي لي رغباتي يا زهرة ما دمتِ تثقين بي، فأنا متعب جدًّا وراحتي بين راحتيك.

مَدَّ لها راحتيه، فلم تعره اهتمامًا، وازداد وجهها وجومًا وهي تسأله:

- ماذا تقصد من حديثك هذا؟ ألا تطيق صبرًا حتى نعقد قراننا ويتم زفافنا؟

رَدَّ صبري عليها بلهفةٍ وهو يقترب منها ثانية:

- لا أطيق الانتظار، فأنا عندما أراكِ، وأنظر لجسدك تثور كل خلايا جسدي، وتشبُّ النيران في أعضائي.

قالت له في لهجة جدية حاسمة:

– لو لبى الإنسان نداء الجسد كلما اشتهى جسدُه ذلك فلا فرق إذن بين الإنسان والحيوان، ما دام الإنسان تُحركه غريزته ولا يستطيع كبح جماح شهواته.

اعترت وجهه نظرة ساخطة مستنكرة ردَّها، لم تكترث لها زهرة، واستطردت:

– كثيرًا ما سمعت جدتي تُردِّد أن المعصية تذهب وتذهب معها لذتها، ولكن إثمها يبقى، ويظل يُلاحق صاحبها.

لم يُثنِه إعراضُها عن الاستمرار في محاولة إقناعها أن تذعن لنداء جسده وتستسلم له، بل زاده تمنُّعها رغبةً فيها، وظل يحاور ويناور ويجادل، وهي لا تلين ولا تستجيب لمحاولاته، وتتعامل مع كل تلك المحاولات بنضوجٍ استمدَّته من تجربتها السابقة التي سقتها كأس العلقم.

مرَّت الأيام وهي تحاول التعايُش لمجرد التعايش والاستمرار وتتغاضى وتتجاوز عن تصرفات صبري الصبيانية التي لا تليق برجلٍ في مثل سنه، يقف على حافة الأربعين مُلوحًا بالوداع لحقبة من الزمن ليست هينة.

لم تُحرِّك محاولات صبري المستميتة شهوتها، أو تُثير غرائزها و لو لحظات، ولم تشتهِه كونه رجلًا و لو مرة .. حتى مُخيلتها لم تستدعه للحضور في

أحلامها، فهي لا تريد من الدنيا الآن إلا مجرد حائط بشري سميك تستند إليه، وتستظل بظِلِّه كما تردد أمُّها دائمًا على مسامعها.

كانت حواراته الهاتفية سمجة وسخيفة، ويلفُّ ويدور، ويراوغ لكي يغير مسار الحوار ليرضي شهواته، وكانت تتعمد أن تغلق هاتفها ليلًا حتى تستريح من حواراته اللجوج التي سئمتها كما سئمته، ولم تعد تقوى على تحمُّل سخافاته.

ذات ظهيرةٍ رنَّ جوالها، وامتعض وجهها عندما رأت اسمه على شاشة هاتفها، فإذا به يطلب منها أن تقابله في مدينة المحمودية لأمرٍ عاجلٍ وسري للغاية، وعندما رفضت الامتثال لمطلبه ألحَّ إلحاحًا شديدًا مراتٍ ومرات، وأفصح لها عن رغبته في الاختلاء بها في شقة أحد أصدقائه الذى أخلى له الشقة ومنحه مفتاحها.

أغلقت زهرة هاتفها، ولم تُمكِّنه من إكمال حديثه، وكان مطلبه الوقح هذا يعدُّ القشة القاصمة التي أتت على ما تبقى لها من صبر.

تجلَّدت زهرة في المساء، ودلفت إلى حجرة والدها بعد صلاة العشاء، وقصَّت عليه ما كان من صبري، فاستشاط أبوها غضبًا، وطلب منها إحضار هداياه البسيطة التي أهداها لها، لكي يُعيدها إليه، ويفسخ خطبتهما، فقد طفح الكيل.

لم تمضِ إلا دقائق معدودة بعد أن أرسل عبده له هداياه المتواضعة مع أحد جيرانه من أهل الثقة الذي أخبره أن كل شيء نصيب دون إبداء أي

أسباب، وسمعت زهرة وأهلها صخبًا شديدًا أمام منزلهم، فقد حضرت أم صبري أمام دارهم، وظلَّت توبِّخهم، وتُكيل لهم من الشتائم والسباب ما تعفُّ الأذن عن سماعه، فكانت ترعد وتبرق، ثم تمطرهم بوابل من الكلام الموجِع، وما تركت من نقيصةٍ إلا ووسَمَتْ بها زهرة وأهلها، وكيف أنها كانت كريمة معهم لأقصى درجات الكرم بموافقتها أن يتزوج ابنها البكر سيد شباب القرية كما أطلقت عليه بمطلقة سبق لها الزواج من قبل ... وكيف أنهم قابلوا إحسانها هي وابنها بالإساءة بدلًا من أن يحفظوا لهما الجميل.

حاول أهل الحارة تهدئتها وإسكاتها، وعندما ازدادت فجورًا وتجاوزت الحد في تقوُّلها على زهرة، نَهَرَها أهلُ الحارة، وتصدَّوا لها قبل أن تشتبك معها عفاف التي كانت قد عقدت عزمها على الفتك بها أمام أهل الحارة، ولكن أم صبري فرَّت بجلدها قبل أن تفتك بها عفاف وجاراتها.

رغم افتراءات أمِّ صبري ومعايرتها وفُجرها في خصومتها، فإن فَسْخ الخطبة كان بردًا وسلامًا على زهرة، وأثلج صدرها، وكأن حِمْلًا ثقيلًا تم رفعه عن كاهلها، وبدأت بعد فترة قصيرة تستعيد نشاطها وبهجتها، وما افتقدته من نفسها بدأ يعود إليها تدريجيًّا.

كانت زهرة مستلقية على فِراشها في حُجرتها، وصوت المذياع في حجرة جدتها يصل إلى مسامعها من إذاعة القرآن الكريم، فاستوقفتها الآية الكريمة التي يقول الله عز وجل فيها: "لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا".

توقفت عند هذه الآية الكريمة، وردَّدتها عدة مرات، واستشعرت ما فيها من بعثٍ للأمل في النفس، ودعوة ربانية للصبر، وانتظار الفرج، وأن الأمر بيد الله القادر القدير الأوحد، وأنه وحده لا شريك له قادر على تغيير الأمور وإصلاح الشئون في لمح البصر.

كان لهذه الآية قُدرة خارقة على اختراق روحها للتغلُّب على ما أصابها وما ألَّم بها من قنوط ولحظات يأس، وكأن يد الله تطبطب عليها، وتقول لها:

لا تحزني، وقَرِّي عينًا، وما عليك إلا أن تنتظري، فالقادم بيد الله الرحمن الرحيم الذي لا يرحل أبدًا، ولا يخذل أبدًا، ولا يأتي إلا بالخير حتى ولو رأيت ظاهر الأمور خلافًا لذلك.

كانت تلك الآية القصيرة شفاء لما اجتاح صدرها من ضيقٍ وهمٍّ، فتفاءلت خيرًا، وتيقَّنت أن القادم أجمل وأفضل ما دام بيد الله.

حمدت زهرة الله على كل ما آلت إليه أمور حياتها، وطلبت منه المزيد من الصبر على ما لم تُحط به علمًا، وطلبت من الله - سبحانه وتعالى - أن يتجاوز عن سيئاتها، وقِلة صبرها، ويُرفق بقلة حيلتها، وهوان أمرها، وأصبحت هذه الآية نبراسًا لها، وبداية جديدة لحياةٍ ملؤها الرضا والتفاؤل.

الفصل السادس

لم تشعر الأسرة بالسعادة والبهجة أيامًا طويلة مثلما شعرت بها ذلك اليوم الذي ظهرت فيه نتيجةُ الثانوية العامة، وحصول هناء على درجاتٍ ممتازة تؤهِّلها للالتحاق بكلية الطِّبِّ التي طالما حلمت بالالتحاق بها، وسعت لتحقيق حلمها بالجِدِّ والاجتهاد والمثابرة؛ حتى صار حقيقةً وواقعًا ملموسًا سَعِدَ به الجميعُ، وملأ نفس أبيها بالفخر والاعتزاز من جديد.

طلبت هناء من شقيقتها زهرة أن تُرافقها إلى مدينة الإسكندرية لإنهاء الإجراءات الورقية للتقديم والالتحاق بالكلية، وكذلك الانتهاء من إجراء الكشف الطبي، وبعد الانتهاء من الإجراءات تذهبان إلى بعض الحوانيت لشراء ملابس جديدة.

وافقت زهرة على الذهاب برفقة هناء، فقد كانت في أمسِّ الحاجة للتنزُّه وتغيير الأجواء، وذهبت معها إلى كلية الطب بمدينة الإسكندرية، وفي أثناء

وقوف هناء وزهرة أمام شباك شئون الطلبة في الكلية اقتربت إحدى الفتيات من هناء، وجذبت يدها.

تهلَّل وجه هناء عندما رأتها، فهى سمر زميلتها ورفيقتها في أثناء الذهاب والإياب من و إلى الدروس الخصوصية العام الماضي.

تعانقت الفتاتان، وقبَّلت إحداهما الأخرى، وتبادلتا التهنئة لتمكنهما من الالتحاق بكلية طب الإسكندرية، وعزمتا ألَّا تفارق إحداهما الأخرى منذ تلك اللحظة، حيث إنهما جمعتهما مدرسة ثانوية واحدة، وستجمعهما كلية واحدة لسنوات طويلة قادمة.

انشغلت هناء مع زميلتها لبرهة، وعندما تنبَّهت لوجود أختها بجوارها والتفتت لتقدمها لزميلتها .. ألقت سمر نفسها في حضن زهرة وعانقتها وهي تقول:

- كيف حالك يا زهرة؟

عبَّرت سمر عن دهشتها؛ لأنها لم تكن تعرف أن زهرة هي شقيقة زميلتها هناء.

ردَّت زهرة:

- الحمد لله بخير .. كيف حالكم وحال والدتك؟

ابتسمت سمر وقالت:

- نحن جميعًا بخير.

والتفتت حولها كأنها تبحث عن شيء ما واستطردت:

- أخي عصام هنا معي، لكنه دخل إلى الكلية لإنهاء بعض الأمور لي.

اضطربت زهرة عندما سمعت اسم عصام، و تذكَّرت زوجها السابق، وتذكرت كذلك أن خطيبة عصام هي ابنة صبحي .. المجرم الذي حوَّل حياتها جحيمًا، ودمَّر زواجها، ودنَّس شرفها وشرف أسرتها.

جذبت زهرة ذراع هناء لتحثَّها على الانصراف بسرعة لتتجنَّب ملاقاة عصام.

نظرت زهرة إلى سمر، وأخبرتها أنهما لا بد أن تسرعا بالانصراف حتى يمكنهما شراء ما يلزم هناء من ملابس؛ لأن وقتهما ضيِّق، ولا بد من عودتهما إلى القرية قبل حلول الظلام.

ألقت زهرة عبارتها على مسامع سمر ولم تمهلها حتى تردَّ عليها، واستدارت وهي تشدُّ ذراع أختها، فارتطمت بجسد شخص ما.

رفعت رأسها لتعتذر له فوجدته عصامًا الذي بادر بتحيتها برقةٍ وودٍّ.

تحيَّنت سمر الفرصة، وأخبرت عصامًا أن هناء وزهرة ستذهبان لشراء ملابس جديدة لهناء، واقترحت على أخيها مرافقتهما لشراء ما تحتاج إليه من ملابس جديدة، وأنها ستستفيد من ذوق هناء وزهرة وخبرتهما في انتقاء الملابس المناسبة لحياتها الجامعية الجديدة.

شعرت زهرة بعدم الارتياح، ولكنها لم تستطع أن تتهرب منهما.

استقلوا الترام المتجه إلى محطة الرمل، وجلست زهرة بجوار أختها، وجلس عصام بجوار شقيقته في المقعد المواجه لزهرة.

حاول عصام التودد إلى زهرة، وتجاذُب أطراف الحديث معها ليزيل عنها ما تعانيه من توتر، ولم يتطرق إلى حياتها السابقة، واقتصر حديثه عن التحدث عن حالة الطقس، ودرجة الحرارة، وجمال مدينة الإسكندرية.

كان لمدينة الإسكندرية مكانة خاصة في قلب زهرة، حيث عشقت تلك المدينة منذ نعومة أظفارها حيث اصطحبها والدها أكثر من مرة وهو يزور تلك المدينة مترددًا على عيادات الأطباء طلبًا للعلاج والاستشفاء، أو من أجل زيارة إحدى بنات عمِّه التي تزوجت منذ أعوام طويلة في الإسكندرية وتقطن بالقرب من ميدان المنشية.

توقَّف الترام، ونزل الرفاق في ميدان محطة الرمل، وابتاع لهن عصام بعض الطعام والمثلجات والعصائر، واقترح عليهن أن يجلسن برهة على شاطئ البحر ليتناولوا طعامهم، ويستنشقوا عبير البحر، وبعد ذلك يبدؤون في التجول والمرور على الحوانيت.

وافقت زهرة على مضض، وتبعتهم على استحياء، وكانت جليسة عصام ومحاورته معظم الوقت، إذ انشغلت الفتاتان معًا بشئونهما وشئون دراستهما وحياتهما الجامعية الجديدة.

لم تسعد زهرة ولم تهنأ برفقة عصام؛ لأن وجوده استدعى لها أمورًا كثيرة ومريرة، تمنت أن تمحوها من ذاكرتها، كما أن رفقة عصام وصحبته جعلت حضور أحمد حضورًا طاغيًا في مخيلتها، ولم تستطع انتزاعه من رأسها طوال الوقت، وتداعت ذكريات كل ما مرَّت به من أحداث عصيبة أمام عينيها.

تحدَّث عصام كثيرًا عن نفسه، وعن أحلامه المستقبلية، وعن خطيبته بثينة، وعن خططها لإتمام الزواج في إجازة الصيف بعد انتهاء بثينة من اختباراتها.

كانت زهرة تستمع في صمت، وتبتسم ابتسامات باهتة مُعقِّبة على حديثه؛ حتى لا يتحرج من صمتها، وعدم تجاوبها معه.

استطاع عصام في نهاية اليوم أن يُذيب الجليد، وبدأت زهرة تتصرف بأريحية أكثر من بداية اللقاء، وحظوا في النهاية بيومٍ لا بأس به، فقد أنهوا إجراءات الكلية، وتبضَّعوا وابتاعتا ما تحتاجان إليهِ من ملابس وأغراض لحياتها الجامعية الجديدة، وكان عصام نِعمَ الرفيق والعون لهنَّ طوال يومهنَّ.

بدأت سمر تتردَّد على دار عبده، واعتاد عصام أن يمرَّ عليهم ليصطحب أخته، وبدأت زهرة تعتاد وجود سمر وعصام في حياتهم خاصة بعد بدء العام الدراسي الجديد، وإقامة هناء وسمر في المدينة الجامعية بالإسكندرية.

حرصت الفتاتان على الجِدِّ والاجتهاد، وقررتا المكوث في المدينة الجامعية أطول فترات ممكنة، وعدم الرجوع إلى البلدة إلا في أحلك الظروف، وادِّخار وقتهما في المذاكرة والتحصيل.

يسَّر قُرب مقر عمل عصام من مدينة الإسكندرية الأمور على الفتاتين، فكان عصام يأخذ ما تحتاج إليه شقيقته من طعام وأموال، ويزورها، ويتفقد أحوالها أسبوعيًّا. ويمرُّ على دار عبده ليأخذ معه ما تحتاج إليه هناء.

أَلِفَ جميعُ أهل دار عبده عصامَ بعد ما عهدوه منه من شهامةٍ ومروءةٍ وحُسن الصُّحبة رغم تخوفهم وحذرهم منه في البداية، لكونه صديق أحمد من ناحية، ولكونه نسيب غريمهم اللدود من ناحية أخرى، ولكن حُسن خُلق عصام، وطيب خصاله، وجهله ببواطن الأمور جعله مصدرًا لثقتهم، ومالت إليه قلوبُهم.

اعتاد عصام أن يمرَّ عليهم كل جمعة بعد المغرب؛ ليأخذ منهم ما أعدُّوه من الطعام أو النقود، ويوصِّلها إلى هناء حتى لا تضطر للحضور إلى القرية كل أسبوع.

كان عصام حلو المعشر، طليق اللسان، ذا هيبةٍ ووقار، ولا يملُّ مجالسته.

كان رجلًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، فكان جديرًا به الاستحواذ على قلوب أهل الدار، وثقتهم، وكثيرًا ما دعاه عبده لقضاء الوقت معه ومجالسته، وأهل داره وتناول الطعام معهم.

أصبحت زيارة عصام لمنزل الحاج عبده وقضاء السهرة معهم روتينًا معتادًا كل جمعة، وأصبحت له مكانة خاصة في نفوسهم جميعًا، وخاصة صفية التي كان يُداعبها ويُكثر المزاح معها، وكانت تستغل وجوده بينهم، فتطلب منه أن يشرح لها بعض المسائل التي تستعصي عليها، ولا تستوعبها في مادة الرياضيات.

حان مساء يوم الجمعة، فأعدَّت عفاف طعام هناء، وما تحتاج إليه من ملابس وأغراض ونقود، وانتظرت قُدوم عصام، ولكنه لم يحضر كعادته.

طلبت عفاف من عبده أن يتصل بعصام ليحثَّه على الحضور إليهم كعادته مساء كل جمعة، فقد أعدت الطعام والملابس التي تحتاج إليها هناء.

اتصل عبده بعصام أكثر من مرة، ولكن هاتفه كان مغلقًا طوال الوقت.

صباح اليوم التالي هاتَفت زهرة شقيقتها هناء، وأخبرتها أن عصامًا لم يحضر الليلة الماضية، وأنهم لم يتمكنوا من إرسال ما تحتاج إليه من أغراض ونقود خلال هذا الأسبوع.

لم تندهش هناء من حديث زهرة، وأخبرتها أنه لم يجلب لسمر طعامًا أو نقودًا أيضًا، وأن شقيقته سمر حاولت الاتصال به أكثر من مرة، ولكنها لم تفلح في التواصُل معه، فهاتفت سمر والدتها وسألتها عن سبب عدم مجيئه، وغَلْق هاتفه، فبررت والدتها ذلك بأنه مشغول جدًّا في عمله، ولم يكن لديه وقت كافٍ ووعدتها أن يحضر لها عصام ما تحتاج إليه في أقرب وقت.

انتاب سمر القلق، وأخبرت هناء أنها لم تشعر بارتياح وهي تُحدِّث والدتها، وأن نبرة صوتها يُغلِّفها الحزن والتوتر، ونتيجة لذلك قرَّرت سمر النزول إلى القرية الخميس التالي بعد الانتهاء من أحد الاختبارات.

استبدَّ القلق بقلب زهرة، وتملَّكتها الحيرة، فكان تغيُّبه المفاجئ عنهم غريبًا من ناحية، ومن ناحية أخرى حارت في أمرها، فقلقها المبالَغ لم تجد له مبررًا، فهي منذ طلاقها وزواج أحمد لم تعد تعبأ بهبوب الرياح من أي اتجاه، فلم تعد سفينتها تشتهي شيئًا، أو تتوق نفسها إلى شيء، فقد افترشت أرض الخيبات والتحفت سماء الخذلان منذ زمن.

حاولت زهرة أن تُخرِج عصام من مخيلتها، وأن تتجاوز قلقها عليه، ولكنها لم تتمكن من كبح جماحها، فلم يكن أمامها من خيار إلا أن أخبرت والدها بما قصَّته عليها شقيقتُها هناء بشأن عصام، ومخاوف شقيقتها أن يكون مريضًا أو حدث له مكروه.

شعر عبده أن من واجبه أن يسأل عليه خاصةً أنه حاول مهاتفته أكثر من مرة، وكان هاتفه مغلقًا طوال الوقت، ولم يتمكن من الاتصال به أو التواصُل معه بأي طريقة.

قرَّر عبده أن يزور عصامًا للاطمئنان عليه، وتفقُّد أحواله برفقة جاره وصديق عمره سالم، ولم يكن ذهابه إلى هذه القرية بالأمر الهيِّن، فربما يلتقى طليقَ ابنته الذي أساء الظن بابنته وطلَّقها، وربما يلتقي خصمَه اللدود صبحي الذي طالما حلم بالانتقام منه وأراد قتله وتمزيقه إربًا إربًا يومًا ما، ومن يدري

ربما لو رآه أمامه وجهًا لوجه لفَقَدَ أعصابه وفتك به ومزَّقه كل مُمزَّق، وجعله عبرة لسارقي الشرف وهاتكي الأعراض.

طرقَ عبده وسالم باب منزل عصام بعد أن أرشدهما أحد الصِّبية إليه، وفتحت والدة عصام لهما الباب، ورحَّبت بهما، فكانت تعرفه جيدًا مذ ليلة زفاف أحمد وزهرة.

جلس الرجلان في (المندرة) حتى خرج عليهما عصام مطأطأ الرأس، شاحب الوجه، ذابل العينين، بعد أن كان صبيح الوجه، باسم الثغر.

ذُهل سالم من تبدُّل حال عصام، وخَّمن أنه ربما أُصيب بمرض عضال، فآل منظره إلى ما آل إليه.

قام الرجلان، وبادرا بمدِّ يديهما لمصافحة عصام الواهن المنكسر، طليق اللحية والشارب على غير عادته.

بادرَ عبده بالسؤال وهو في حيرة:

- ماذا بك يا بني؟ هل أصابك مكروه؟

استطرد عبده وهو يتفحص قسمات وجهه:

- لقد قلقنا جميعًا عليك، وحاولنا مهاتفتك عدة مرات، ولكن هاتفك كان مغلقًا دائمًا.

رد عصام بصوت منكسر:

- أنا بخير والحمد لله على كل حال.

بادرَ العم سالم بسؤاله:

- هل ذهبت مؤخرًا إلى الطبيب؟

ردَّ عصام:

- أنا بخير، ولستُ مريضًا، ولا أعاني مرضًا عضويًّا، والأمر لا يتعدَّى الإرهاق والتعرُّض لبعض الضغوطات.

دخلت أم عصام المنظرة وهي تحمل صينية الشاي، وهي تتمتم ببعض الكلمات وتقول:

- منهم لله أولاد الحرام، لم يبقوا لأولاد الحلال شيئًا.

زجر عصام والدته، وطلب منها أن تصمت، ولكنها لم تستجب لطلبه، واتَّجهت إلى ولدها كأنها تسدي له نصحًا، وطلبت منه أن يقصَّ حكايته على مسامع الرجلين لعلهما يوجهانه للصواب، ويستعيض بمشورتهما عن مشورة والده الذي وافته المنية منذ سنوات.

صمت عصام وشرد ذهنُه كأنه يتمعَّن في حديث أمه، ولم ينبس بكلمة.

حاول الرجلان حثَّه على الكلام، والفضفضة، ولكنه ظَلَّ صامتًا. نظر الرجلان إلى بعضهما البعض، ونظرا إلى والدة عصام التي بدأت تعاتب ولدها وتوبِّخه على صمته، وأنه بصمته هذا يسيء إلى نفسه وإلى سمعته وشرف أسرته، ويحاول التستر على من لا تستحقُّ، ومن قذفته بالباطل، واتهمته بالتعدي عليها ظُلمًا وبهتانًا.

انفعل عصام على والدته للمرة الأولى، ونهرها بعنفٍ أمام الرجلين، فانهمرت في البكاء، فرَّق قلب عصام لدموع والدته، وساءه أن يكون هو المُتسبِّب في ذرف تلك الدموع، فنهض من مكانه، وانحنى عليها وهي جالسة تبكي، وقبَّل يديها ورأسها، ومسح دموعها، وهو يبكي، فقامت من مجلسها، واحتضنته وهي تدعو له بصوت متهدِّج متحشرج بالبكاء:

- ربنا ينصرك يا بني ويبرئ ساحتك أمام الجميع، ويفضح من فضحك.

كان الرجلان في عجبٍ مما يسمعان ويشهدان، وبدأ عصام يتمالك أعصابه، وأخذ يقصُّ عليهما قصته. أخبرهما عصام أنه فوجئ منذ عدة أيام بحميه صبحي يتصل به في عمله على غير عادته، ويطلب منه سرعة الحضور لأمر مهم، ولكنه لم يتمكن من الحضور لظروف عمله إلا الخميس الماضي، وبمجرد وصول عصام إلى منزله باغته صبحي بزيارة غير متوقَّعة، وكان متوترًا على غير عادته، وطلب منه التحدث على انفراد، وعندما انفرد به سأله:

- متى سنعقد القِران ونقيم حفل الزفاف؟

تعجَّب عصام من سؤاله، وأخبره أن موعد الزفاف، وعقد القِران في موعدهما المحدد سلفًا، وكما هو متَّفق عليه بعد ظهور نتيجة العروس، أي في شهر أغسطس.

ردَّ صبحي ردًّا تعجب له عصام، وقال له وقد ازداد صوتُه حِدة وغلظة:

- أنت تعلم أنه لا بد أن نُعجِّل بالزفاف، ويُستحسن أن يكون بعد أسبوع، وكلما بكَّرنا الموعد كان أفضل.

ازداد تعجب عصام من كلام صبحي وقال له:

- أنا غير مُستعدٍّ حاليًا، ولا أستطيع الزواج إلا بعد الانتهاء من تشطيب شقتي، وجلب الأثاث من دمياط، وليس معي ما يكفي من المال الآن.

ازدادت حدة صبحي، واحتقن وجهُه، وأمسك بتلابيب عصام، وكاد يخنقه مُهدِّدًا متوعدًا:

- أقسم بالله العظيم إن لم تعقد قِران ابنتي اليوم فسوف أقتلك.

تساءل عصام، وقد بدا مذهولًا غير مدركٍ لما يحدث، كأن هناك شيئًا خفيًّا يجهله:

- ما الداعي لتلك العصبية والوعيد والتهديد؟

هَجَمَ عليه صبحي ووضع يديه على كتفيه وهو منهار:

- البنت حامل يا مجرم.

صُعق عصام من هول ما سَمِعَه، وشعر أنه لم يُحسن الاستماع، وأن هناك شيئًا ما غير صائبٍ، وقال في دهشة:

- عمَّن تتكلم؟ ومَنِ الحامل تلك؟ أنا لا أعلم عمَّ تتكلم.

استشاط صبحي غضبًا، وأعاد الهجوم عليه، وأمسك تلابيبه، وهو يُردد:

- هل تتملص من فِعلتك الدنيئة يا كلب؟ ألم تعتدِ على ابنتي، وتُغرِّر بخطيبتك التي وثقت بك وتُفقدها أعزَّ ما تملك الفتاة؟

انخفض صوتُ صبحي، وقلَّت حِدته، وبدا صوته مرتعشًا كما ترتعش يداه، وهو يطبطب على ظهر عصام المذهول المضطرب غير المصدق لما يسمع وما يقول له:

- لِمَ تعجَّلت يا بني؟ لماذا لم تصبر حتى تصير زوجتك وحليلتك؟! على كل حال يمكننا تدارُك الأمر، وعقد القِران والإسراع بإتمام الزفاف، وسنجد ألف حجةٍ لنخبر أهل القرية بها، ونُكمم أفواههم، ونقطع ألسنتهم.

لم يستطع عصام كظم غيظه وصرخ:

- أنا لم أقترب من ابنتك، ولم أختلِ بها قط، ويمكنك التحقق من ذلك بسؤال زوجتك؟

ردَّ صبحي وقد زاد انفعاله وعلا صوتُه:

- لقد أخبرتنا بثينة بما حدث بينكما حينما حضرتَ إلى منزلنا ذات ليلة وكانت وحيدة في المنزل، ونحن نعلم أن الشيطان خدعكما، وغرَّر بكما يا بني .. اعترف يا بني بجُرمك، ويُمكننا إصلاح كل شيء .. لا ضير في ذلك

ما دمتما مخطوبين، وأنت تعلم أن قراءة الفاتحة في عُرفنا وفي قريتنا تعدُّ عقدًا وكتب كتاب.

حاولَ صبحي أن يستعطف عصامًا، وينتزع منه اعترافًا بفَعلته وينتزع موافقته على التعجيل بالزفاف، لكن عصامًا جُن جنونه، وأخذ يقسم ويقسم أنه لم يقرب بثينة، ولا بد أن في الأمر سرًّا وأن أحدًا غرَّر بها وخدعها.

لم يُصدِّق صبحي عصامًا، وهَجَمَ عليه واشتبك معه، ولم يتركه وينصرف إلا عندما تجمَّع الجيران لفضِّ اشتباكهما، وخاف صبحي أن يُفتضح أمر ابنته، وانصرف بعد أن توعَّده بالقتل إن لم يصلح ما أفسده.

كان عصام يقصُّ على مسامع الرجلين ما بدرَ من صبحي، وعبده غير مصدقٍ لما يسمع، وأصابته حالة غريبة من المشاعر المتناقضة والمُربِكة والمُحيِّرة في وقت ذاته، فلم يعرف هل هو سعيد أم حزين؟ متشفٍّ أم متعاطف؟

لم يتخيَّل عبده أن يُبدع القدر في تصفية الحسابات، ووضع النهايات بتلك الطريقة المُبدِعة التي لا يملك الإنسان حيالها إلا أن يقف منبهرًا ومبهورًا بالطريقة التي تُحاك بها تصاريف القدر، وتتم بها عدالة السماء.

رغم تشفِّي عبده في ما حدث لصبحي فإن غِبطته خالَطها أسفٌ وأسى وتعاطَف مع عصام الذي كان في موقفٍ لا يُحسد عليه، فهو من جهةٍ متهم بتهمة شنيعة وحقيرة، ومن جهةٍ أخرى مجنيٌّ عليه لو تم الجزم ببراءته و هذا ما مال إليه الرجلان، خاصة بعد أن أحضر عصام القرآن الكريم، وأقسمَ

عليه أمامها أنه لم يقرب تلك الفتاة، ولم يرتكب كبيرة من الكبائر طوال حياته، فكيف به يرتكب الفاحشة.

لمعت عينا عبده بالدموع وهو يُردِّد:

- إن ربك لبالمرصاد، هو المنتقم الجبار الذي يُمهل ولا يُهمل.

نظر إليه عصام نظرة المتعجب من ردَّة فِعله المبالغ فيها، ومن عبارته المبهمة بالنسبة له، تدارَك عبده الموقف وقال له:

- نحن نثق بك يا عصام، ونعلم أنك على خُلق، وتتقي الله، وحاشا لله أن تأتي بتلك الفاحشة.

أكد سالم كلام عبده، ونظر إلى عصام وقال له:

- إن الله لن يخذلك يا بُني، وسرعان ما تنجلي الأمور ويُظهِر الله الحق.

ردَّت أم عصام شاكية باكية موضحة حال ولدها، كأنها تحثُّ الرجلين على التسرية عن ولدها وتوجيهه وإرشاده:

- إنه كما تريان لا يأكل، ولا يشرب، ولا يذهب إلى عمله، واعتزل الحياة كلها، وأهل بثينة يتوعدونه ويتربصون به.

اقترح سالم على عصام وأمِّه أن يذهبا إلى بيت صبحي، ويطلبا منه مواجهة ابنته ونفي اتهامها له بالحجة والبرهان وبالحيلة والخديعة إذا لزم الأمر.

استحسن الحاضرون جميعًا كلام سالم، وحُسن منطقه، وقرَّر عصام أن يزور منزل صبحي في اليوم التالي برفقةً والدته حتى يجد طريقة يُبرئ بها ساحته.

انصرف الرجلان بعد أن تعهدا بمساندة عصام، والوقوف بجانبه، وطلبا منه إعلامهما بما سوف يجري بعد زيارته لمنزل صبحي، فربما يحتاج عصام إلى الاحتكام إلى جلسةٍ عُرفيه لتبرئة ساحته، وفَسْخ خطوبته إذا لم يصل إلى حلٍّ ودي مع صبحي وأسرته.

الفصل السابع

على غير المتوقَّع لم تسعد زهرة بما وصل إليها من أخبار صبحي وابنته، فهي رغم بُغضها وحِقدها على صبحي ورغبتها في الانتقام منه فإنها لا تتمنى الفضيحة لأي امرأة، حتى لو كانت ابنة صبحي فاضحها ومُدمِّر حياتها، وتعاطفت تعاطُفًا شديدًا مع عصام، فهو لم يكن موضع شُبهة قط، ومعروف للجميع بدماثة خُلقه وحيائه.

حزنت زهرة حزنًا شديدًا لحزن عصام وتعرُّضه لهذا الموقف الصعب، ربما لأنها هي نفسها ظُلمت من قبل، ومرَّت بكل ما يمر به الآن، وشعرت بكل ما يشعر به المظلوم من قهرٍ، وغضبٍ، ومرارةٍ، وخذلان.

لم تفكر كثيرًا، ولم تتردد في أن تتصل بعصام، لكنه لم يرد، فكرَّرت الاتصال أكثر من مرة، ولم يجب أيضًا، فقررت أن ترسل له رسالة نصية قالت فيها:

الأخ عصام،

لا تحزن من مجرد اتهام. نثق جميعًا أنه محض افتراء، نحن نعلم أنك أطهر من أن تدنسك كلمات بلا معنى .. ليس فيها من المنطق شيء.

تحياتي.

لم تتلقَّ زهرة ردًّا من عصام، ولم تتيقن حتى من قراءته لتلك الرسالة.

عزم عبده وسالم على معاودة زيارة عصام للاطمئنان عليه، والسؤال عن أي تطورات جديدة، خاصة أنه مرَّ يومان ولم تصلهما أيُّ أخبار جديدة، ولم يتصل بهما عصام ليطمئنهما كما وعدهما من قبل.

لم يكن عصام موجودًا في المنزل عند زيارة عبده وسالم له، فقد قرَّر الذهاب إلى عمله في مدينة برج العرب، ومواصلة حياته بعد أن استمع لنصيحة عبده وسالم بالذهاب إلى بيت صبحي ومواجهة ابنته بافتراءاتها أمام أسرتها، وكانت المواجهة في صالح عصام، حيث أنكر عصام الاتهام، وطلب إجراء تحليل الحامض النووي أو كما يطلقون عليه البصمة الوراثية، وعندما سمعت بثينة ذلك تبدَّل لونُها، وأسرعت إلى غرفتها، وأغلقت عليها الباب من الداخل.

تفاجأت أسرة صبحي بردِّ فعل ابنتهم، وطلبوا منهم الانصراف، وعدم الخوض في ذلك الأمر حتى يتم حسمه.

أخبرت أمُّ عصام الرجلين بكل ما جرى في ذلك اللقاء الذي جرى منذ يومين، وبينما هم يتبادلون أطراف الحديث رنَّ جرس الباب، فخرجت أم

عصام لترى من بالباب، وعادت بعد خمس دقائق تحمل كرتونة ضخمة الحجم مملوءة بأغراض نسائية وهي مبتهجة، صبيحة الوجه، كأن الشمس تشرق من وجهها بعد غروب طويل .. كانت تحمد الله، وتثني عليه، فتعجَّب الرجلان من تبدُّل حالها، ولكن ذهب العجب عندما وضعت الكرتونة جانبًا وأخرجت علبة قطيفة وهي تردد:

– لقد أعاد حسن بن صبحي الشبكة والهدايا التي أحضرها عصام لبثينة، وقال كل شيء قسمة ونصيب.

نظرت إلى السماء وهي تُردِّد:

– الحمد لله الذي خلصنا منهم، ونجَّى ابني من شَرَكِهم وفضيحتهم.

تهلَّل وجه عبده، ونظر إلى سالم الذي كان لا يقلُّ عنه سعادة بتبرئة ساحة عصام من تلك السُّبة الشنيعة.

نظر عبده إلى أم عصام وقال:

– لا بد أن هناك أمرًا ما، أو أن هناك شيئًا جديدًا جَدَّ، ولولا ذلك ما تكتموا الأمر، وأرسلوا الشبكة والهدايا.

ردَّت أم عصام وهي باسمة الثغر:

– ما يعنيني هو فسخ الخطبة دون فضائح، وهذا يعني أنهم كشفوا سِرَّ ابنتهم، وعلموا مَن المتسبب في حملها بعيدًا عن ابني.

ردَّ سالم:

– كلامك صحيح يا أم عصام، ولا بد أن تُقبِّلي يديك صباحًا ومساء أن الله أظهرَ الحقَّ، وأظهرَ حقيقة هذه الفتاة قبل أن يتزوجها ابنك.

قبَّلت أمُّ عصام يديها وهي تحمد الله وتقول:

– الحمد لله، عصام ابني طيب وابن حلال، والله يقول في كتابه: "الطيبون للطيبات".

استمرت أم عصام في حديثها وهي في غاية البهجة والسرور:

– لا أكاد أصدق أن ابني خرج من هذه الورطة التي أرَّقت مضجعه، وكادت أن تسيء لسمعته، وتمس شرفه، وشرف أسرتنا، ونحن ناس على باب الله لا نملك من الدنيا إلا الشرف والسيرة العطرة.

ردَّ الرجلان في الوقت نفسه بالثناء والحمد تأييدًا لحديثها وتأكيدًا له.

اقترح عبده عليها أن تتصل بعصام لتخبره بما حدث حتى تقرَّ عينه وتطمئنَّ نفسُه.

تنبَّهت أم عصام إلى أنها لا بد أن تزفَّ هذا الخبر السار لولدها وأقرَّت كلام عبده وهي تقول:

– لقد صدقت والله يا حاج عبده، ولكن سعادتي وفرحتي بخلاص ابني ونجاته من تلك الزيجة التي كانت ستجلب لنا العار ليس لها مثيل، وسأتصل به حالًا حتى يخرج من حزنه، ويسعد بتلك الأخبار السعيدة.

مدَّت أم عصام يدها، وأخذت جوالها من فوق منضدة بجوارها، وأخبرت عصامًا بكل ما حدث، وما كان من أسرة بثينة وإرسالهم الشبكة والهدايا، وأخبرته بوجود عبده وسالم اللذين جاءا للاطمئنان عليه.

فرح عصام فرحًا شديدًا بما وصل إليه من أنباء، وحمد الله وأثنى عليه كثيرًا؛ لأنه أنقذه من هذه الزيجة، وبرَّأ ذمته من هذه التهمة الخسيسة التي حاولت بثينة رميه بها.

طلب عصام من والدته إعطاء الهاتف لعبده، ومن بعده إلى سالم حتى يشكرهما، ويعبر عن امتنانه لهما على حُسن ظنهما به، وثقتهما به، وببراءته من التهمة التي حاول صبحي وابنته إلصاقها به.

ما كادت أمُّ عصام تغلق الهاتف مودِّعة ابنها حتى سمعت هي وضيفاها صوت زغاريد وصوت أعيرة ناريةٍ كادت تخرق آذان الحضور.

تعجَّبت أم عصام لسماع تلك الزغاريد لأنها تعلم أن هذا الوقت من العام تندر فيه الأفراح والأعراس، حيث شهر ديسمبر من جهة، ومن جهة أخرى فهي ككل أهل الحارة لم يصل إليها نبأ خطوبة أحد أبناء الجيران أو بناتهم.

فتحت أم عصام نافذتها، فوجدت أن معظم جيرانها مثلها لا يعرفون ماذا يحدث حولهم، وفي حيرة من أمرهم، ويتساءلون فيما بينهم عن مصدر تلك الزغاريد وتلك الطلقات النارية.

تجمَّع شباب الحارة وأطفالها، وفتحت السيدات النوافذ، وفُتحت العيون والآذان لاستطلاع الأمر، ولم تخمد نار فضولهم عندما علموا بمصدر تلك الجلبة، بل ازدادت اشتعالًا ووهجًا عندما أخبرهم أحد المارة أن مصدر هذه الزغاريد بيت الأسطى صبحي بمناسبة عقد قِران ابنته بثينة على خالد أحد أبناء عمومتها.

أصابت القوم بلبلةٌ شديدة عند سماعهم الخبر غير مصدقين لما سمعوه؛ لأن خالدًا ليس غريبًا عنهم، فهو جارهم أيضًا، ويعرفونه حق المعرفة، ويعرفون أنه متزوج منذ عام فقط بصباح بنت قريتهم التي يعرفونها جيدًا أيضًا، التي أنجبت له مولودها الأول منذ ما يقارب ثلاثة أشهر. ومما زاد من التخبط واضطراب الآراء عدم وصول خبر فسخ خطبة بثينة وعصام؛ مما أحدثَ هياجًا وصخبًا، وطرح العديد من الأسئلة، خاصة بعد ظهور علامات الفرح والبهجة على وجه أم عصام واستقبالها تلك الأنباء بوابل من الزغاريد.

الفصل الثامن

كانت بثينة فتاة جميلة تهفو إليها أفئدة الكثيرين من شباب القرية، وترنو إليها عيونهم؛ فهي مليحة الوجه، ملفوفة القوام في غير إفراط.

تسير في دلال وتغنُّج، فتتولد عند النظر إليها رغبات جانحات طامعات لاهثات من كل مَن يراها، حتى هام بها الكثيرون من شباب القرية، وأصبح كل شاغلهم الظفر بنظرةٍ من سهام عينيها الكحيلتين، ولمَ لا؟ فهي تمتلك وجهًا جميلًا، وبشرة صافية شفافة، وجسدًا طويلًا جذابًا يزيِّنه ردفان عريضان، وخصر نحيل، وثديان مكتنزان، فكانت مثارًا لإعجاب كل من رآها من الشباب واشتهائهم.

اعتاد عصام أن يرى بثينة في غدواته وروحاته، فهي تسكن في آخر الحارة التي يقطنها، وتصادف أن استقلَّ معها وسائل المواصلات أكثر من مرة، وبالفعل قد راقت له كأنثى جميلة ومُتعلمة، وتصلح أن تكون زوجة له.

وبالرغم من أن عصامًا لم يخبر والدته بأنها أثارت إعجابه، فإنه عندما قرر أن ينتقي فتاة مناسبة من بين فتيات القرية ليقترن بها كانت بثينة في مقدمة الفتيات التي بادرت الأمُّ بعرض أسمائهن على عصام لينتقي منهن واحدة، فمالت كِفَّة بثينة، ورحَّب عصام باقتراح أمِّه بالذهاب إلى والدها الأسطى صبحي لطلب يدها.

اصطحب عصام والدته وأخته وعمَّه، وذهبوا إلى بيت صبحي لخطبة ابنته بثينة، وكانوا قد أرسلوا إليهم قبل ذلك بأسبوع مَن يخبرهم برغبة عصام في طلب يد بثينة، والسماح لهم بزيارتهم إذا قوبل طلبهم بالترحيب من قِبل بثينة وأهلها.

رحَّب صبحي وأهل داره بخطبة عصام لابنتهم بثينة؛ فهو جارهم، ويعرفون خصاله وطباعه وسيرته الحسنة حقَّ المعرفة، علاوة على كونه رجلًا متعلمًا تعليمًا جامعيًّا عاليًا، فهو مهندس، وله مكانة علمية واجتماعية كبيرة بين أهل القرية وشبابها.

تمت خطبة عصام وبثينة وسط أجواء مليئة بالفرح والسعادة، وكانت زهرة قد حضرت حفل خطوبتهما برفقة حماتها في أثناء زواجها بأحمد، ولم يخطر على بال أحد أن الأمور ستنتهي بينهم تلك النهاية الكارثية.

في اليوم الذي ذهب عصام ووالدته إلى دار صبحي لإنكار الاتهام الخسيس الذي حاولت بثينة إلصاقه بعصام نجح عصام في دفع أصابع الاتهام بعيدًا عنه، وتبرئة ساحته عندما واجه بثينة وجهًا لوجه، وطلب من والدها إجراء

تحليل الحامض النووي لمعرفة هُوية المجرم الذي اعتدى عليها، الذي مما لا شك فيه أن ابنتهم تعرفه جيدًا، ونظر عصام بكل شجاعة وجرأة إلى بثينة التي لم تجرؤ على رفع رأسها ومواجهة عينيه الغاضبتين، بل نكَّست رأسها في خجلٍ وخزي، وهو يقول لها والشرر يتطاير من عينيه:

– تعلمين جيدًا أنني لم أمسسك بسوء، ولم أفعل معك ما يُشين، بل للأسف كنت أخاف الله فيك، وأخشى عليك أكثر مما تخشين أنت على نفسك.

توجَّه عصام ناحية المقعد الذي تجلس عليه وسط ذهول أمِّها وأبيها وأخيها وحيرتهم، وأمسك كتفيها وهزها بعنف وهو يقول:

– لا بد أن تخبريني باسمه الآن يا فاجرة، يا من وضعتِ اسمي وعِرضي بين يديك فلطختيهما، وتحاولين اتهامي بما لم أفعله زورًا وبهتانًا.

فَقَدَ عصام رباطة جأشه وخبطها بقبضته على كتفها، وكاد يلطمها على وجهها لولا أن أخاها حسن قفز من مكانه وأمسك يده، وبدآ يتعاركان ويشتبكان معًا.

أسرعت بثينة، فقامت من مكانها، وجرت إلى غرفتها، وأوصدت باب حجرتها من الداخل.

وثب صبحي ليفضَّ الشجار بين عصام وولده حسن، وكان عصام قد وصل إلى ذروة غضبه، وتوجَّه إلى حسن وقال له:

– كان أولى بك أن تُظهِر تلك النخوة والرجولة في محلها، وتحافظ على شرفكم وعِرضكم الذي لطخته أختُك، ويجب أن تحمد الله وتثني عليه

وتُقبِّل يدك من كل ناحية صباحًا ومساء أنني ما زلت أكتم سِرَّكم، ولم أفضح أمر أختك حتى الآن.

بُهت الجميع، وجذب عصام يَدَ أمِّه التي ظلت صامتة واجمة تراقب ما يحدث في خوفٍ وهلعٍ، ولم تنبس بكلمة كما طلب منها ولدها قبل دخولهم دار صبحي.

انصرف عصام ووالدته، وعندما انفضَّ الجمع أسرع حسن إلى غرفة أخته وظلَّ يطرق بابها وهي لا ترد حتى همَّ أن يكسر الباب، وبينما يحاول كسره صرخت أختُه صرخة مدوية، لطمت أمُّها خدها لسماعها، وأسرع صبحي يدفع الباب مع ولده حسن فتهشَّم الباب ودلف ثلاثتهم إلى الحجرة.

صرخت الأم عندما وجدت ابنتها، وقد قطعت شريان يدها اليسرى، وأرض الحجرة مخضبة بدمها الأحمر القاني.

أسرع صبحي بنقل ابنته في سيارته إلى عيادة أحد الأطباء في المركز لنجدتها، وكان ظلام الليل خير ساتر لهم ولابنتهم، وبينما كان صبحي يقود السيارة كانت بثينة تتوسط أمَّها وأخاها الذي حاول منع تدفق الدم من شريانها، وأمُّها تبكي بحرقة، وتخبرها أن كل مشكلة ولها ألف حلٍّ، وأنها سيتم إنقاذها خلال لحظات، وأنهم سيتداركون الأمر عندما يعرفون المجرم الذي غرَّر بها، وافتض بكارتها، وتسبَّب في حملها.

تنفجر بثينة في البكاء وهي تطلب من والدها ووالدتها وأخيها أن يسامحوها ويغفروا لها فعلتها، وأنها كانت ضحية، ومجنيًّا عليها، وتخبرهم أن عصامًا لم يقترب منها، وأنه كان نعم الإنسان الشريف المخلص الذي لم يدنس ثوبها أو يمسسها بسوء قط.

حثَّتها أمُّها أن تخبرهم باسم ذلك الحيوان الذي لطَّخ شرفها، واعتدى عليهم، فنطقت اسمه مترددة متلعثمة، وهي تغيب عن الوعي، وقد وهن صوتها:

– إنه ..... إنه .... خالد ..... ابن عمي.

فقدت بثينة وعيها، ولم تشعر بما يدور حولها.

استفاقت بثينة من غيبوبتها، فوجدت نفسها ما تزال حيةً تُرزق، ولم يظفر بها الموت، ووجدت أمَّها بجوارها على الفراش تجلس واجمة تضع يدها على خدها، وكل هموم الدنيا جاثمة على صدرها والدموع تنهمر من عينيها.

كانت الأم تدرك حجم المصيبة التي أوقعتهم فيها ابنتها، فخالد الذي غرَّر بها متزوج منذ أكثر من عام، ولديه رضيع لم يكمل شهره الثالث؛ ولأنه جارهم، ويقطن في المنزل المقابل لمنزلهم، وكونه أحد أبناء عمومة زوجها، فكان يدخل يخرج من الدار، وهم يأمنون جانبه، فكان محلًّا لثقتهم، كما كانت زوجته صباح صديقة لابنتهم بثينة، وتتردَّد عليها في منزلها ومنزل

زوجها خالد أكثر من مرة في اليوم الواحد، وكثيرًا ما كانت تقضي معهما سهراتهما أمام التلفاز، ولا تعود إلا عندما يستدعيها أحد أفراد أسرتها.

وبَّخت الأمُّ ابنتها لتفريطها في شرفها، كما لامت نفسها أيضًا لتقصيرها في رعاية ابنتها حتى تمكَّن منها ذئب بشري عديم الشرف والنخوة، فنهش جسدها، وهتكَ عِرضها، وحملت منه سفاحًا، وكان الأجدر به أن يستر عِرضها، ويصون شرفها، وشرف عائلته.

كانت بثينة مستلقية على فراشها، كأن على رأسها الطير، مستسلمة لقدرها، ونفسها راضية، ومستعدة أن تنال العقاب الذي تستحقه.

تداعت ذكرياتها وتواترت أفكارها وخواطرها، وتراءت أمام عينيها أحداث كثيرة بدت تافهة وبلا معنى، لكنها أدَّت إلى المأساة التي تعيشها الآن وتعيشها أسرتها.

توطَّدت الصداقة بين صباح زوجة خالد وبثينة بحكم تقاربهما في السِّنِّ، وبحكم قرابة الدم بينها وبين زوجها خالد، وبحكم قرابة الجوار أيضًا، فكانتا لا تفترقان إلا نادرًا، أو عند النوم، وعند ذهاب بثينة إلى كليتها في دمنهور.

كثيرًا ما كان خالد يُمازحها في ذهابها وإيابها، ويتودد إليها، وكانت بثينة تتعامل معه بكل الود والأريحية، وتتبسط معه في القول، وكثيرًا ما جلست معه بمفردها أمام التلفاز، وزوجته صباح منشغلة بأمور بيتها أو مطبخها،

فكانت صباح تتحرك في كل أنحاء المنزل، وتقوم بأعمالها المنزلية، وتغدو وتروح هنا وهناك، وبثينة جالسة مع خالد.

كان خالد يطيل النظر إلى بثينة، ويختلس النظر إلى جسدها الفائر، ومع كثرة تردُّدها عليه هو وزوجته، واقترابها منهما اشتدت رغبته فيها، وتمنَّاها لنفسه، وبدأ يعاملها بطريقةٍ مختلفة فيها من الرِّقة والود والتودد ما لم تعهده منه من قبل.

تزايد اشتهاء خالد لبثينة وولعه بها، وأصبحت صورتها لا تفارق مخيلته منذ ذلك اليوم الذي دلف فيه إلى غرفة نومه فجأة، وفتح بابها فوجد بثينة أمام المرآة تقيس قميص نوم شفاف ابتاعته، وصممت على ارتدائه أمام صباح لتأخذ رأيها فيه، وقد اعتادت كلما ابتاعت شيئًا لجهازها وشوارها أن تعرضه على صباح، وتأخذ بمشورتها، وتستحسن ذوقها في شراء ما يلزمها من ملابس وأشياء أخرى.

حاول خالد أكثر من مرة أن يجلس معها بمفرده، وينفرد بها بعيدًا عن زوجته، لكنه لم يفلح في ذلك.

ذات عشية كان خالد بمفرده في شقته، وكانت صباح قد استأذنته أن تذهب مع والدتها لطبيب النساء والتوليد لتحديد موعد ولادتها، فأذنَ لها بذلك، وأخبرها أن تمكث عند والدتها حتى يذهب للإتيان بها آخر الليل.

اعتاد خالد أن يسترق النظر إلى بثينة أينما وحيثما كانت، فكان يقف خلف ستائر شقته أو خلف النوافذ، فيرشقها ببصره الطاغي، ونظراته المسمومة، فيزداد نزوعه إليها وميله نحوها.

بينما هو على حالته تلك من التلصُّص والتجسس واستراق النظر، ومد بصره إلا ما لا يحل له رآها تغادر غُرفتها بعد أن وضعت شالًا حريريًّا على كتفها، وبعد لحظات رآها تغادر دارها وتتوجَّه نحو داره.

ازداد تدفُّق الدم في عروقه، وتسارعت نبضات قلبه، وازداد شبقًا لها واغتلامًا.

طرقت بثينة باب شقة خالد فتباطأ، وتمهَّل لحظات قبل أن يفتح الباب.

فتح خالد الباب، وبدا كأنه لم يكن يتوقع أنها من كانت بالباب.

رحَّب بها قائلًا:

- بثينة! أهلًا وسهلًا .. تفضلي بالدخول.

جابت بثينة الشقة ببصرها باحثة عن صباح، فلم ترها أو تسمع لها صوتًا، فنظرت إلى خالد مستفسرة:

- أين صباح؟ إنني لم أرها منذ أمس، ولم أرها تفتح نافذة أو تقف في الشرفة كعادتها.

تلعثم خالد وهو يقول لها:

- انها بالداخل ترقد في غرفة نومها.

استطرد متلجلجًا مضطربًا:

– لقد كانت متوعكة طوال اليوم، ولم تقوَ على الوقوف على قدميها، فطلبتُ منها أن تذهب إلى فراشها وتستريح.

بدا القلق على وجه بثينة وهي تقول:

– ألف سلامة عليها. كلها أيام قليلة وتسترد عافيتها بعد أن تضع مولودها ونسعد جميعًا بقدوم الضيف الجديد.

همَّت بثينة أن تنصرف وهي تقول:

– عندما تستيقظ سوف أعود لرؤيتها والاطمئنان عليها.

أسرعَ خالد، ووقف في مواجهتها ليحول بينها وبين الباب، محاولًا إقناعها بعدم الخروج والبقاء معهما والدخول على زوجته للاطمئنان عليها.

– لقد صحت من نومها منذ فترة، ولكنها مستلقية على ظهرها الآن لتنال قسطًا من الراحة، فكما تعلمين الاستلقاء على الظهر مريح جدًّا للسيدات الحوامل في الشهر التاسع لفرط ما يجدن من آلام الظهر والعمود الفقري.

أشار إليها بيديه للدخول إلى غرفة النوم حيث تستلقي زوجته، وهو يقول:

– تفضلي بالدخول يا بثينة .....تفصلي.

تتوجَّه بثينة إلى غرفة نوم صديقتها، فيسرع باللحاق بها.

تخطو بثينة داخل الحجرة وتمد يدها لتضيء النور موبِّخة صباح على كسلها وتكاسلها:

- كُفي عن هذا الدلع الماسخ وكفاكِ ...

لم تكمل عبارتها عندما أضاءت الحجرة، ولم تجد صباح في الغرفة واستدارت في دهشةٍ، فوجدت خالدًا أمامها يسد الباب بذراعيه.

ظنت بثينة أنه يمازحها كما اعتاد أن يفعل، فحاولت إبعاده عن طريقها والخروج من الغرفة.

- كفاكَ مُزاحًا يا خالد ... أين صباح؟

سألته وهي باسمة الثغر.

ولكن بسمتها صارت عبوسًا عندما وجدته يُغلق باب حجرة النوم بالمفتاح، ويهجم عليها محاولًا احتضانها وتقبيلها.

صرخت بثينة، وحاولت الإفلات من قبضته، لكنه كان قد أعدَّ عُدته، ورفع صوت التلفاز من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت غرفة نومه بعيدة عن الشارع، فلم يتمكن أحد من نجدتها.

كانت كلما صرخت كتم صرختها بفمه، والتهم شفتيها كجائع شرهٍ نهمٍ لم يذق طعامًا منذ أيام.

ظلَّت بثينة تقاومه حتى تمكَّن منها، وافتضَّ بكارتها عندئذ تلاشت مقاومتها وانهارت.

بعد أن فرغ منها استلقى بجوارها خائر القوى، أما هي فقد تعلقت عيناها الباكيتان بسقف الغرفة، ولم تنبس بكلمة.

مضت عدة دقائق وهما صامتان، وكان هو من قَطَع هذا الصمت موجهًا حديثه إليها:

- لا تقلقي ولا تخافي ولا تحزني، سوف آخذك إلى طبيب يُعيد إليك عُذريتك.

كانت صامتة لا تتحدث، وكما كانت تنزف دمًا كانت تذرف دمعًا ملتهبًا حارقًا.

نهض خالد من فوق الفراش، وساعدها على النهوض، وهو يُقبِّل يديها ويقول لها بصوتٍ كله نذالة وخِسة ووضاعة:

- انهضي واذهبي إلى الحمام، واغتسلي حتى لا يُفتضح أمرنا، ولا تنبسي بكلمة، وإلا أنكرت ما كان بيننا.

نظرت إليه نظرة ازدراء واحتقار، وبصقت في وجهه، وتحركت نحو باب الحجرة فأمسك بيدها ثم رفعها إلى فمه ليقبلها، وملامح الخزي والعار ترتسم على وجهه وهو يقول لها:

- آسف جدًّا وأعتذر .. لا أعلم كيف حدث هذا، لم أقصد ذلك، ولم أرتِّب له، لم أستطع أن أتحكم في نفسي .. صدقيني ضعفت أمام جمالك وجسدك الناري الملتهب الذي أشعل النار في جسدي، فلم أتمالك نفسي.

كان يجثو عند قدميها، ويطلب منها أن تلتمس له عذرًا، فدفعته بيدها، وانصرفت بعدما اغتسلت، وأزالت آثار ما لحق بثوبها من دماء غاليةٍ أهدرتها في غير موضعها مع من لا يستحق.

عدَّلت ثيابها، وهرولت إلى دارها، ومنها إلى حجرتها، فألقت جسدها على سريرها، وتظاهرت أنها تغطُّ في نومٍ عميق، وهي لم تذق للنوم طعمًا، وعيناها ساهدتان باكيتان طوال الليل.

توقَّفت بثينة عن زيارة صباح، وتحججت بأنها مشغولة بالمذاكرة، وكانت تتهرب من صباح كلما طلبت منها الذهاب إليها لتكون أنيسة وحشتها ومؤنستها.

بعد عدة أيام علمت بثينة من أمِّها أن صباح ولدت صبيًّا جميلًا، وأنها ستخرج من المستشفى إلى بيت والدتها حتى تسترد عافيتها وينتهي نِفاسها، ومن ثم تعود إلى شقتها.

ظلَّت بثينة تترقَّب عودة خالد إلى شقته، وعندما تيقنت من وجوده بمفرده ذهبت إليه، وطلبت منه أن يلتزم بالعهد الذي قطعه على نفسه، ويذهب معها إلى طبيب أمراض نساء يُعيد إليها بكارتها على نفقته الخاصة؛ حتى لا يُفتضح أمرها، فهي لا تملك أي أموال خاصة بها، وتلك العملية تتطلب مبلغًا كبيرًا.

طمأنها خالد، وأخبرها أنه سيجهز المبلغ اللازم لذلك في أقرب وقتٍ، وما عليها إلا التذرع بالمزيد من الصبر حتى يكمل المبلغ المطلوب، وطلب منها أن تطيعه وتلبي له رغباته؛ حتى يسرع في تنفيذ مطلبها، وتحقيق مرادها.

بدأ خالد يُراوغها ويباطلها ويبتزها ليستلب منها كل ما استطاع أن يناله من جسدها، فكانت كمن سقط في هاوية سحيقة.

لم تستطع بثينة أن تقاومه أو ترفض طلبه، وواقعها برضاها معتقدة أنه بذلك سَيْصُدقها وعده.

تكررت اللقاءات الآثمة بين خالد وبثينة في غياب زوجته عن المنزل، وفي غفلة من صبحي وزوجته عن بثينة.

كان حجة خالد الواهية أن المبلغ المطلوب لم يكتمل بعد، وأنه بصدد تجميعه، وأنها مسألة وقت فقط.

مَرَّ أكثر من شهر، ولم يفِ خالد بوعده رغم أنها منحته نفسها أكثر من مرة إرضاء له حتى تحثَّه على التعجيل بإجراء العملية الجراحية، وعندما طفح كيلها، وبلغ السيل الزُّبى، ولم يبق في قوس صبرها منزع ذهبت إليه، وتوسَّلت إليه بقرابتهما وصلة الرحم التي بينهما ألا يفضحها، وأن يسترها.

- عندي لك اقتراح جيد يا بثينة.

خاطبها بنبرة لم تعهدها منه.

ردت عليه متعجبة من طريقة خطابه لها:

- عن أي اقتراح تتحدث؟ هل ستظل تتلاعب بي؟

- أنا لا أستطيع الاستغناء عنك، ويمكننا إجراء العملية قبل موعد زفافك بفترة قصيرة، وحتى ذلك الحين نظل كما نحن.

استمرَّ في حديثه وهي واجمة، فقد أدركت فداحة ما اقترفته من جُرم في حق نفسها، وحقِّ أسرتها، وحقِّ خطيبها وصديقتها.

– ألا تجدين عندي مبتغاك وسعادتك كما أجد سعادتي وراحتي وأنتِ بين يدي؟

قالها وهو يعلم أن كِفَّته أرجح من كفتها وأنها لم تعد تملك من أمرها شيئًا.

– حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا خالد. كنت أعلم أن من يفضح بنت عمه .. لحمه ودمه ما هو إلا خسيس نذل، ليس له وعد أو عهد، ولكني كنت أُكذِّب نفسي. ولكن أقسم لك إن لم تنفذ وعدك لي فسأخبر أهلي بكل شيء وليكن ما يكون.

بلغَ غضبُها ذروته، وعلا صوتها، فخشي أن يُسمع صوتها، وحاول تهدئتها، وضع يده على فمها، فدفعت يده بعيدًا عنها، وزجرته متوعدة، والشرر يتطاير من عينيها، والدماء تغلي في عروقها، وقد تضخم صوتها واحتد:

– أمامك أسبوع تُدبِّر فيه ما يلزمني من المال، وتجد طبيبًا محل ثقة، وإلا فسأخبر زوجتك وأهلي بأنك خدَّرتني واغتصبتني، وساعتها لن يرحمك أحد.

تركته وانصرفت، وهي في غاية الغضب، وقد عقدت العزم أن تقف له بالمرصاد حتى ترغمه على إنهاء المأساة التي تسبَّب فيها.

مَرَّ يومان وهي تشعر بإعياء وإرهاق شديدين، وفقدت رغبتها في تناول الطعام، فقلقت أُمُّها عليها، وطلبت منها الذهاب معها إلى طبيب القرية.

رفضت بثينة الذهاب برفقة أمها إلى لطبيب، وأخبرت أمها أنها تعاني نوبة برد شديدة، وأنها ستتناول مجموعة للبرد، وتصبح بعدها على ما يرام.

جثم الهمُّ على قلب بثينة التي تعلم جيدًا أنها لا تعاني بردًا، وأن هذه الأعراض غريبة عليها، ولم تنتبها من قبل، وبدأ الشك والريبة يتسربان إلى نفسها، وتمنت ألا يكون ما هداها إليه شكُّها صحيحًا.

مر يومان على مرض بثينة، وتجرعها لجرعة مجموعة البرد، وحالتها تزداد سوءًا، وزاد عليها حالة الاشمئزاز والغثيان التي تعانيها، وحالات القيء المتكررة التي انتابتها؛ مما أثار حفيظة أمِّها وقلقها، وتوجُّسها، فللنساء قرون استشعار وحدس لا يخطئ أبدًا.

مر يومان آخران، وأمُّ بثينة تراقبها دون أن تشعر بها بثينة، وفي نهاية اليوم السادس تفاجأت بثينة بأمِّها تدخل عليها غرفتها، وتغلق الباب خلفها، وتقول لها:

– ماذا بك يا فتاة؟ ومن الذي فعلَ بك هذا؟

ازداد وجه بثينة شحوبًا وذبولًا، فالبطحة ليست ببعيدة عن رأسها، لكنها تماسكت قدر استطاعتها، وتظاهرت بعدم فهمها ما ترمي إليه أمُّها.

– عمَّ تتحدثين يا أمي؟ ما هذا الكلام الغريب الذي تتفوهين به؟

ظلت ألام تنظر إليها وهي أشدُّ حزمًا وعبوسًا، وأمسكتها من شعرها وقالت لها:

– لن أتركك، ولن يهدأ لي بال أو يغمض لي جفن حتى أعلم ماذا أصابك.

أخرجت الأم من صدرها شريطًا، وطلبت من ابنتها أن تبوَّل عليه، قطرةً أو قطرتين.

نزل هذا الأمر كالصاعقة على مسمع بثينة التي حاولت التملُّص من أمِّها، وإقناعها أن ما يجول بخاطرها مجرد هراء، ومحض افتراء، ولكن كانت لأمِّها الغلبة.

وبعد لحظات قليلة تحققت الأمُّ من صدق حدسها، وتحوَّلت شكوكها إلى حقائق.

– أنت حامل يا فاجرة، يا سافلة.

خاطَبتها أمُّها وهي تكيل لها اللكمات والقبضات في أماكن متفرقة من جسدها، وهي تبكي كأنها أصابها مسٌّ شيطاني، أو مسٌّ من الجنون، بينما بثينة تبكي بحرقة وهي تدفع عن وجهها لكمات أمِّها وركلاتها، وأمام إصرار أمها

على معرفة الجاني شريكها في جريمتها، لم تجرؤ بثينة أن تنطق باسم خالد، ووجدت نفسها تلصق التهمة بخطيبها عصام.

تداعت أمام عينيها كل تلك الأحداث والذكريات وهي مستلقية على فراشها كالمتهم الذي ينتظر النطق بالحكم، ونفسها راضية متقبِّلة مستسلمة لما سيؤول إليه أمرها بعد انتهاء الجلسة العائلية السرية التي اجتمع فيها أعمامها وخالها مع أعمام خالد، وأشقائه للبتِّ في أمرهم، وإزالة الرجس والدنس الذي لحق بثوب العائلة خاصة أن المتسبب في هذه الفضيحة الشنعاء أحد أفراد العائلة الذي كان ذئبًا لم يراعِ حُرمة رحم أو دم أو نسب.

حاول صبحي وأفراد عائلته إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتجنُّب الفضيحة، فكان لا يمكن تدارُك الأمر إلا بتزويج خالد ببثينة بعد فسخ خطبتها من عصام.

تم إرسال شبكة عصام وهداياه، وبعدها بلحظات تم إعلان خطبة بثينة إلى خالد، وعقد قرانها، وكان وَقْع الخبر على صباح وأسرتها صادمًا كارثيًّا أحرق الأخضر واليابس بين الزوجين، وأسرتيهما من ناحية، وبين الصديقتين وأسرتيهما من ناحية أخرى، ورفضت صباح العودة إلى بيت زوجها بعد انتهاء فترة النفاس، وطلبت الطلاق وأصرَّت عليه.

الفصل التاسع

رغم برد يناير القارس فقد كان يومًا مشمسًا دافئًا حيث الجمعة الأولى من إجازة نصف العام، ومع نسائم العصر الدافئة المشمسة على غير العادة في هذا الوقت من العام، خرجت زهرة إلى حديقتها الزاخرة بزهورها النضرة تتفقدها، وتستمتع بدفء أشعة الشمس الهاربة من براثن فصل الشتاء القارس.

كان الهواء عليلًا يبعث في النفس الأمل، وروح التفاؤل والتطلُّع إلى غد جميل مشرق.

تفقَّدت زهرة حديقتها وزهورها، ومرت على كل شجيرة ونبتة وزهرة، فروت ما احتاج منها إلى ريٍّ، وقلَّمت ما كان في حاجة إلى تشذيب وتنسيق وتهذيب.

كانت زهرة منكفئة تغرس بعض الشتلات عندما خُيل إليها أنها سمعت أحدًا يقول لها بصوت رخيم:

- كيف حالك يا زهرة؟

لوهلة ظنت أنه هاتف هتف بها لولا أنها اشتمَّت شذا عطر، واستشعرت وجود شخصٍ خلفها، فرفعت رأسها، وهي تستدير بجسدها لتجد عصامًا شاخصًا أمامها مادًّا يده لمصافحتها، فمدت يدها ثم جذبتها قبل أن تصل ليده، بعد أن تنبَّهت إلى أن يديها ملطخة بالوحل والطين، فخشيت أن تُدنِّس يديه.

أخرج عصام من جيبه منديلًا معطرًا نديًّا، وأمسك راحتيها، فمسح عليهما، وأزال ما لحق بهما من دنس.

سحبت زهرة راحتيها من بين يديه، كأنها استعادت وعيها، وثابت إلى رُشدها الذي فقدته لثوانٍ.

تنبَّهت زهرة لوجود سمر أخت عصام على مقربة منهما، فسلمت عليها وقبَّلتها، ورحَّبت بها.

دلفت سمر إلى المنزل لتلقي التحية على أهله، وتتبادل أطراف الحديث مع هناء التي حضرت لزيارتها تلبية لرغبة أخيها عصام الذي أراد التسرية عن نفسه، والتجول في الهواء الطلق، فاقترح على أخته زيارة هناء حتى يتحين الفرصة ويعبر عن امتنانه للحاج عبده؛ لوقوفه بجواره ومساندته في أثناء أزمته مع أسرة صبحي.

سأل عصام زهرة عن والدها، فأخبرته أنه في الحقل، وأنه يمكنه المكوث معهم حتى يعود أبوها من الحقل، وأكدت له أن أباها سيسعد كثيرًا لرؤيته.

كان لبشاشة وجه زهرة وحُسن استقبالها لعصام وأخته أثر طيب في نفسه؛ مما شجعه أن يطنب في حديثه معها.

ضاحكًا قال لها:

- هل سنظل واقفين هكذا طويلًا؟

تنبَّهت زهرة أنها لم تدعُه لدخول الدار كما فعلت مع سمر.

فأشارت بيديها إلى باب الدار وهي تقول:

- يا خبر أبيض .. لا أعلم ماذا ألَمَّ بي! تفضَّل .. البيت بيتك.

ابتسم عصام، فكشف عن أسنان كحبات اللؤلؤ وقال لها:

- ما أجمل الجلوس هنا وسط هذه الزهور الخلابة حتى يحضر العم عبده!

باسمة الثغر قالت له:

- إذا كنت ترغب في ذلك فلتتفضل بالجلوس هنا.

وأشارت إليه أن يجلس على أحد المقاعد القديمة الموجودة في الحديقة.

أشار إليها أن تجلس أمامه، فجلست على استحياء في مواجهته، وحرصت أن تكون بينهما مسافة زادت على المترين أو أكثر.

- شكرًا لك يا زهرة.

ردت زهرة في دهشة:

- علامَ تشكرني؟ لم أفعل لك ما يستدعي الشكر؟

– شكرًا على رسالتك الرقيقة التي وصلتني، وأنا في أشد الحاجة لكلمة طيبة تطيب خاطري، وليدٍ تربت على كتفي. فكنت أنت من فعل ذلك.

– لقد ظننت أن تلك الرسالة لم تصلك عندما لم يصلني منك ردٌّ.

– لم أكن في حالة تسمح لي بالرد، ولم يكن لديَّ ما يقال. ولكن تلك الرسالة شدت من أزري، وكانت كطوق نجاة لغريق.

بحسرة تغلف صوتها قالت له:

– ربما أكون تجرَّعت مرارة الظلم، وشربت هذه الكأس من قبل.

– هل تعلمين أنني إلى الآن أجهل سبب انفصالك عن أحمد رغم أنه صديقي الحميم، فقد كان خبر طلاقكما خبرًا صادمًا جدًّا؛ لأنني شهدت وعايشت ما كان بينكما من شغفٍ وحبٍّ، وسكينة، ورحمة، وعندما عبرت له عن دهشتي عند سماعي بهذا الخبر لم يعقِّب أحمد، وكان حزينًا ومنكسرًا، وهو يخبرني بانقطاع القسمة والنصيب عند هذا الحد، وأنه لا يريد الخوض في ذلك، فالتزمت الصمت، رغم وجود الكثير والكثير من علامات الاستفهام والتعجُّب.

كانت عينا عصام تطرحان العديد من الأسئلة التي عجز لسانه عن طرحها.

ترقرقت الدموع في عيني زهرة وهي تقول له:

– كان أحمد الحب الأول، واللمسة الأولى، والقُبلة الأولى، والحضن الأول، ولكنه كان أيضًا الوجع الأكثر ألمًا وإيلامًا. ظننته الركن والسند

والحصن الذي سأحتمي خلفه لو جار عليَّ الزمن. كنت في حاجة ماسة ليحتويني بين جنبات نفسه قبل أن تحتويني وتطوقني ذراعاه.

اكتشفت أنني كنت واهمة، وكنت كالغريق الذي تعلَّق بقشة هشةٍ، فكانت سببًا في غرقه وهلاكه. كان هو من أفلت يدَه وتخلَّى عني.

سألها عصام وقد زادت دهشته:

– لماذا تخلَّى عنك وهو يحبُّك؟ أعلم جيدًا أنه كان مولعًا بك، وهذا ما لا أستطيع استيعابه أو إيجاد تفسيرًا له.

بمرارة وحسرة قالت له:

– إن العلاقات لا تدوم جبرًا أو قسرًا، وأنا لا ألومه، فربما كان مُحقًّا، وربما كانت له مبررات وجيهة.

مندهشًا ردَّ عصام:

– كلامكِ مبهم، لا أستطيع فهمه! كيف يمكن أن يكون لديه سبب وجيه للانفصال عنك؟

أجابته زهرة محاولة إنهاء الحوار:

– كل ما أستطيع أن أقوله لك: إنه كان له في سوء الظن بي أكثر من مدخل هو وأهله.

تعجَّب عصام من ردِّها، وطلب منها إيضاحًا، لكنها تهرَّبت منه، ودلفت مسرعة إلى المنزل لتحضر له مشروبًا يتناوله.

خرجت زهرة من الدار تحمل إليه كوبًا من عصير البرتقال، فوجدت أباها جالسًا بجواره، وبعد أن ارتشفا العصير طلب منه الدخول إلى الدار قبل أن يحلَّ الظلام، وطلب من زهرة الإسراع بإعداد طعام العشاء حتى يتناول عصام وسمر الطعام معهم.

بعد الانتهاء من تناول العشاء، واحتساء الشاي جلس عصام، وشقيقته وسط أسرة عبده في جوٍّ يسوده الود والألفة، فتعالت الضحكات والبسمات على القفشات والنِّكات والطرائف التي كثيرًا ما يتبادلها الأهل والأصدقاء لتدفئة ليالي الشتاء الباردة.

عاد عصام من زيارة زهرة وأهلها، وهو لا يستطيع أن ينتزع زهرة من مخيَّلته، وأصبحت هي وحديثها المبهم الغامض شغله الشاغل، فكان حديثها لغزًا محيرًا. حاول أن ينال قسطًا من النوم، فجافاه النوم وأرق مرقده.

استلقى على فِراشه، واسترجعت ذاكرته كل المواقف التي جمعته بزهرة منذ أن رآها أول مرة، حينما تمَّت خطبتها لأحمد. تتابَعت وتوالت المواقف والأحداث أمامه كما لو كان يشاهد شريطًا سينمائيًّا.

دون عمدٍ بدأ عقله يُقارن بينها وبين من كان سيقترن بها، فلم يجد وجهًا للمقارنة بينهما، وأدرك كم كان ساذجًا سطحيًّا عندما اختار بثينة لتكون شريكة لحياته لمجرد أنها جميلة، وكيف أنها كانت على النقيض منه في كل شيء، لم تكن شبيهة روحه، ولم تُحبّه يومًا، ورغم أنه أيضًا لم يستطع أن يحبها فقد أصبح كسير الكبرياء بسببها، وإن بدا غير مكترث بها أو بجُرمها.

أمسك هاتفه، وبدأ يبحث عن حسابها على الفيس بوك، فاهتدى إليه بسهولة، فقد كانت أخته صديقة مشتركة بينهما.

تراجَعَ قبل أن يرسل إليها طلب إضافة، وبدأ يتجول في صفحتها ويقرأ منشوراتها، فلم يترك حرفًا إلا ومَرَّ عليه مرات عديدة.

لم يستطع أن يكبح جماح نفسه وجنوح عاطفته؛ فقد فاضت بها نفسُه، فأرسل إليها رسالة نصية كانت عبارة عن سؤال واحد وهو:

هل ما زلتِ تحبين أحمد؟

أرسل رسالته إليها، وكان كروح حائرة تبحث عن أليفها وتتوق إلى العثور عليه والارتماء في أحضانه.. أيًّا كان جوابها، فسيكون له أثر في نفسه.

انتظر عصام ردًّا، ولكن طال انتظاره، ولم يتلقَّ ردًّا، وظل متيقظًا متقلبًا على فراشه حتى الصباح، فقد أصاب قلبه الأرق.

نهض متثاقلًا من فراشه في الصباح، وسافر إلى عمله دون أن يتناول فطوره على غير عادته.

حاول أن ينهمك في عمله قدر استطاعته، وجاهَدَ نفسه لينزعها من رأسه، لكنه لم يستطع، فكان شاردًا، منشغل البال، يتفقد هاتفه طوال الوقت.

عاد إلى مسكنه في المساء، وقد ازداد توترًا وحنقًا، وفي اللحظة التي ظنَّ أنها لن ترد عليه أبدًا جاءته منها تلك الكلمات:

الأخ عصام،

يبدو أنك لم تحسن قراءتي، وما بين حروفي وأنا معك في حديقتي، والآن أقولها لك صريحة: لقد تخليتُ عن كل مَن لم يتشبث بي، فالقدرة على التخلي نعمة ليس لها مثيل.

تردَّد عصام وبعد هنيهة كتب لها بأصابع مرتعشة:

– هل تصدقين إن أخبرتُك أنني منذ كنت معك البارحة وأنت لم تفارقيني لحظة واحدة؟

مرت لحظات، ولم ترد، فما كان منه إلا أن ضغط زر الاتصال ليهاتفها، ويتحدث معها بطريقةٍ مباشرة، فأكثر ما أراده وتمنَّاه في تلك اللحظة هو أن يسمع صوتها ويشعر بأنفاسها.

لم تجبه زهرة، وآثرت عدم الرد عليه هاتفيًّا، وبأصابع مرتعشة وروح جريح كسير كتبت له:

– أستميحُك عذرًا؛ فقد أصبح قلبي بيتًا خربًا، لا يصلح للسكنى لك أو لغيرك.

ردَّ عليها متعجبًا مستنكرًا:

– لماذا هذا الحزن وهذا التشبيه الذي ليس في محله وينافي ما رأته عيناي، ولمسته روحي فيك من بهاءٍ وجمال ورصانة؟

كم تمنَّت زهرة في هذه اللحظة أن تبوح له بكل شيءٍ، ولكن ما أصعب البوح! فالبوح بالنسبة لحالتها رفاهية لن تنالها أبدًا.

لم يستسلم عصام لصمتها وباغتها بكلماته:

– لا أطلب منك إلا أن تمنحي نفسك وتمنحيني فرصة أخرى، إن الحياة لا تتوقف عند أول عثرة. دعي الماضي، وانفضي عنك غُباره، ولا تنظري خلفك أبدًا، فما مضى قد مضى، ولن يعود أبدًا.

مرت دقائق، وهو ينتظر ردَّها على عجلٍ، وعندما نفد صبره كتب إليها:

– لا تصمتي أرجوك. فما أثقل وما أقسى وطأة صمتك على نفسي!

رغم حاجتها ليدٍ تحنو وتكفكف الدمع، وتطيِّب الجروح، فإنها لم تشأ أن تُرهق روحها بكثرة المُنى والتمني والتعلُّق، وهي تعي جيدًا استحالة الوصول، فهو ليس إنسانًا عاديًّا، فهو صديق طليقها الحميم، ولم يسبق له الزواج من قبل، مما يجعل احتمال ارتباطها به يبدو ضربًا من الجنون والعبث.

فَقَدَت زهرة ثقتها بالجميع، ولم يعد يغريها بريق الكلمات، وسحر الأقوال والعهود والوعود ورونقها، وأصبحت لا تُصدِّق إلا المواقف والأفعال؛ فالجميع يرحلون إذا لم يجدوا مصلحتهم، وكلٌّ يغني على مصلحته ومبتغاه حتى لو منحوا الحياة.

بعد تردُّد وإقبال وإدبار كتبت إليه:

– كل ما يمكنني أن أقوله لك: إن لك مكانًا خاصًّا في نفسي، ولكن ليس لديَّ ما يمكنني منحه إياك، ولك أنت بالذات، وهذه هي المرة الأخيرة التي أردُّ عليك فيها، فأرجو أن تتوقَّف عن مراسلتي أو مهاتفتي.

كتب عصام إليها:

لن أرغمك على الكتابة إلي، ولكني أعِدُك أنني لن أتوقف عن الكتابة إليك أبدًا، فقد تظنين لحظات أنك مجرد شخص عابر في حياة الآخرين، ولكنك قد تكونين الحياة بكل ما فيها لأحدهم، وأنت لا تشعرين بذلك، وربما تكونين حتى أكثر من ذلك.

لمست كلماته وترًا خاصًّا لديها، لكنها عقدت عزمها أن تتوقف عن الرد عليه.

توقفت زهرة عن الرد عليه، لكن عصامًا لم يتوقف، وكان يبعث لها كل صباح كلمات بسيطة اقتصرت في بعض الأحيان على إلقاء التحية، وكذلك كان يفعل في المساءات.

كان اهتمام عصام وشغفه ورِقَّته كفلية أن ينبت في قلبها المزيد والمزيد من الأحاسيس والمشاعر التي حاولَت وأدها، وعدم إظهارها أو الإفصاح عنها بكل قوة.

لمدة أسبوع لم يتوقف عن إرسال الرسائل الصباحية والمسائية لها حتى كان يوم الخميس الذي يحضر فيه إلى القرية بعد الانتهاء من عمله، توقَّف عن إرسال رسالته الصباحية والمسائية في ذلك اليوم، فبدا على زهرة الضيق والضجر طوال يومها، واعترتها حالة من التوتر والتصرف بعصبية مفرطة، وكانت على غير عادتها ممسكة هاتفها تتفقده طوال اليوم بحثًا عن أي كلمةٍ منه.

مَرَّ يوم الخميس، وجاء يوم الجمعة، ولم تصلها الرسالة التي تاقت إليها نفسُها؛ مما زاد توترها وضيقها وحدتها، فتشاجرت مع أختها صفية دون مبرر أكثر من مرة.

استلقت زهرة على فراشها، فاختطفها النوم بسطوة سلطانه، فذهبت في نوم عميق، فرأت في منامها نفس ما رأته من قبل .. الرؤية نفسها، وهي ترتدي الفستان الأبيض، وتقع في حفرة موحلة، ولا تجد من يأخذ بيديها، وتظل تصرخ وتنادي، وتستغيث، وفجأة ظهر لها رجل يرتدي قناعًا يواري ملامح وجهه وقسماته، فمدَّ إليها يده لينتشلها، فتشبثت بها، وأخرجها من الحفرة، وحاول أن يزيل ما لحق بثوبها من دنسٍ وأتربة، ثم وقف ينظر إليها، فاقتربت منه زهرة وأزالت القناع عن وجهه؛ لتكشف عن هويته فإذا به .. عصام.

صحت زهرة من نومها على صوت أمِّها تدعوها لتناول العشاء، حيث رجع والدها من صلاة المغرب، وبينما هم يتناولون عشاءهم، إذا بطارق يطرق بابهم، فاستطرقت صفية إلى الباب تفتحه وتعود إليهم لتخبرهم أن الطارق ما هو إلا عصام. تأججت الحمرة في وجه زهرة عند سماعها اسمه، وبسرعة البرق انسحبت من مجلسهم، ودخلت حجرتها قبل أن يدعوه والدها للدخول ومشاركتهم العشاء.

بعد أن رحَّب الجميع بعصام، واحتفوا به، فاجأ الجميع برغبته في الاقتران بزهرة، وبدت دهشة ممزوجة ببهجة على وجوه الجميع.

انصرف عصام مسرعًا بعد ذلك ليترك للأسرة براحًا من الوقت والحرية ليفكروا في الأمر، بعد أن وعده عبده بالرد عليه في أقرب وقتٍ بعد أن يعرض الأمر على صاحبة الشأن.

تبدَّدت بهجة الأسرة وإحساسهم بأن الله قد عوَّضهم خيرًا جزاء صبرهم على الابتلاءات التي حدثت لهم ولابنتهم، عندما أعلنت زهرة بكل غضب وحنقٍ رفضها الاقتران بعصام، وبعصام خاصةً، وعندما وجَّهوا إليها اللوم وطلبوا منها إبداء سببٍ واحدٍ منطقي يدعوها لرفض عصام، ذلك الشاب الوسيم المهذَّب، دمث الخلق، ذي المكانة العلمية والاجتماعية الرفيعة، ردَّت عليهم زهرة بجملة واحدة:

- يكفي فقط أنه صديق أحمد الحميم.

انزوت زهرة في غرفتها تتنازعها صراعات ورغبات متناقضة متضاربة، فهي أصبحت شديدة التعلق بعصام، لكنها لا تملك الشجاعة الكافية لتتشارك معه باقي حياتها التي يوجد فيها ما تخجل أن تحكيه له، حتى وإن كانت ضحية مجنيًّا عليها، فالزوجة المحبة جل ما تمنحه لزوجها قلب، وروح وجسد، وهي لا تملك إلا قلبًا مهترئًا، وروحًا معذبة ممزقة، وجسدًا منتهكًا.

حاولت هناء أن تثني أختها عن قرارها لأنها أحست بميل نفسها إليه، فكان رد زهرة:

- كما يكون العطاء بالمنح فهو أحيانًا يكون بالمنع.

تعجبت هناء من رد شقيقتها وسألتها:

- كيف يكون ذلك؟

ردَّت زهرة:

- عصام يستحق الأفضل، وأنا برفضي سأمنحه الفرصة لكي يقترن بمن تستحقه، وبمن تكون نقية مثله. سيتزوج مَن لم ينتهك جسدها أحد .. من لم يطمسها أحد قبله.

- سأمنع عنه نظرة السخرية من عيني صبحي الذي رفض الاقتران ببنته التي هوت في الرذيلة ليتزوج بمن اغتصبها هو. سأمنع عنه نظرة التشفي والانتصار في عيني أحمد، وقد تزوج طليقته وفَضْلته المطعونة في شرفها.

نظرت زهرة إلى وجه أختها وهي تنتحب، وأمسكت وجهها في كفيها وقالت لها:

- هل تعتقدين أنه سيظل راغبًا في الزواج بي إذا عَلِمَ بما حدث لي، وعَلِمَ سبب طلاقي من أحمد؟

قالت لها هناء وهي تمسح دموعها وتحتضنها:

- لا تكيلي الرجال بمكيال واحدٍ يا أختاه.

***

خرجَ عصام من دار الحاج عبده، وذهب إلى دار صديقه الحميم أحمد، وطلب منه الذهاب معه إلى مكانهما المفضل في أحضان نهر النيل والجميزة وأشجار التوت.

كان عصام رابط الجأش غير متردِّد أو مبالٍ بردة فعل أحمد، وهو يعرب له عن رغبته في الاقتران بزهرة زوجته السابقة، ويتكلم بسرعة شديدة كمن يعلم أن لحديثه وطأة ثقيلة وبغيضة أيضًا على نفس مستمعه.

لوهلةٍ ظن أحمد وجود التباس في الأمر، أو أنه لم يصغِ إليه جيدًا، وطلب منه أن يُعيد عليه ما قاله ثانية.

ردَّ أحمد كأنه يلقي قذيفة:

– أريد أن أتزوج زهرة، وشعرت أنه ينبغي عليَّ إخبارك بنفسي بحق ما بيننا من صداقة وأخوة، وآثرتُ أن أخبرك بنفسي أفضل من أن تسمع الخبر من غيري.

ظَلَّ أحمد واجمًا عدة دقائق كأنه يحاول استيعاب الموقف قبل أن يسأله بغيظ وغلظة:

– هل ضاقت بك الدنيا ولم تجد غيرها لتتزوجها؟

أجابه عصام وهو يشيح بوجهه عنه:

– لقد تركتْ أثرًا بالغًا في نفسي عندما اقتربتُ منها ومن أسرتها، وعندما سألتُك عن سبب فِراقكما بعد أن رأيت بأمِّ عيني كم كنت سعيدًا معها لم تعطني ردًّا يجعلني أنفر منها.

ضحك أحمد ساخرًا وقال متهكمًا:

- ربما كانت إجابتي تسوؤني قبل أن تسوءها، وربما أملك سببًا وجيهًا لتركها، سببًا يمنعك من الاقتران بها.

ضحك أحمد مقهقهًا بطريقة استفزت عصامًا وهو يقول له:

- ربما تكون فعلت بي مثل ما فعلت بثينة بك.

تعالت قهقهة أحمد وهو يردد:

- يبدو أنك لا تحب إلا تلك النوعية من العاهرات، ولا تنجذب لسواهن. هنيئًا لك، ولكن هذا فِراق بيني وبينك.

انصرف أحمد، وكانت كلماته قذيفة مُحرِقة أشعلت النار في رأسه، ورمت به في بحر لجي متلاطم الأفكار والظنون، فهل خانته فراسته للمرة الثانية وقذفت به في طريق بثينة من نوعٍ جديد ترتدي قناع الطُّهر وثوب العفاف، وما هي إلا مخادعة لعوب تستخدِم وجهها البريء لإيقاعه في شِباكها؟

عاد عصام إلى عمله في المصنع، والهمُّ جاثم على قلبه، مُخيِّم على عقله، غير مصدق لما سمعه من أحمد تارة وتارة أخرى مؤمن بكلامه، متيقن من صحته.

لم يعرف حين وصلته مكالمة الحاج عبده يعرب له فيها عن حزنه وأسفه لعدم رغبة ابنته زهرة في الزواج في الوقت الحالي، هل يفرح ويحمد الله ويُقبِّل

يده وجهًا وظَهْرًا؛ لأنه تخلص من ذلك العرض الشائن أم يحزن لأن من وصفها زوجها السابق بالعاهرة رفضته.

استعادت ذاكرته كل ما مضى بينه وبين زهره من أحداث وأحاديث، وكان شيئًا ما بداخله يخبره أن هناك سرًّا في الأمر، وأن هناك حلقة مفقودة، وأن حدسه لا يمكن أن يكذبه بشأن انطباعاته عن زهرة وإحساسه بها، ولكن وجود الكثير والكثير من علامات الاستفهام، دفعت به إلى الغرق والاستغراق في ذلك البحر الهائج المتضارب من الأفكار والشكوك والريبة والارتياب في كل شيء، وفي كل الناس، ولكن كان هناك شيء ما بداخله يخبره أن الوقت كفيل بكشف ما خفي عليه، وأن ما عليه إلا أن يتحلى بالصبر حتى تُبدِّد شمسُ الحقيقة ما ملأ سماء حياته من غيوم.

الفصل العاشر

لم تكن حياة بثينة الزوجية هانئة مستقرة مطمئنة يومًا ما، فما بدأ بالخطيئة لا يثمر إلا قُبحًا وندمًا وحسرة، ومن زرع الشوك لا يجني الورود، ففي بداية زواجها بخالد كان كسير العين أمامها، حيث فُرض عليه الزواج بالقوة الغاشمة، والضغط، والتهديد من جميع أفراد العائلة ومجلسها العرفي، وهدَّدوه بالقتل إذا لم يذعن لكل أوامرهم وشروطهم، فقد دنَّس شرفهم، ومرَّغ سمعة العائلة في الوحل.

رغم أن خالدًا أوقعها في شِباكه بالخديعة والاحتيال، فقد كان يُعايرها بمضاجعته إياها، ومجامعتها ورضوخها وإذعانها لكل رغباته دون زواج، حتى أنه كان يتهمها أنها حملت منه سفاحًا عامدة متعمِّدة حدوث الحمل لترغمه على الزواج بها، وكان يَسبُّها بأفظع أنواع السباب وأقذرها، وهي ذليلة كسيرة النفس لا تستطيع حتى أن تشكو لأهلها؛ لأنها هي من أوقعت نفسها في شباكه، وكان هذا نتيجة لما جنته يداها.

كان يعلم نقطة ضعفها، وكان كمن يتلذذ بتعذيب روحها، والضغط على جراحها، وهي لا تستطيع حتى أن تصرخ أو تطلب نجدة أهلها الذين قطعوا علاقتهم بها، وأعلنها لها والدها صريحة بعدما عُقد قرانها، إنه متبرئ منها، وإن رأها خارج بيت زوجها أو خطت نحو منزل الأسرة فسيقتلها بيديه.

لم يكد يمر أسبوعان على زواج بثينة وخالد حتى غيَّرت صباح رأيها، واستجابت لنصائح نساء أسرتها اللاتي نصحنها أن تنتقم من صديقتها، وأن تمكر بها، وتكيد لها لتثأر لنفسها ووليدها، وألَّا تتركها تنعم بحياتها.

تواصَل مع خالد رهط من نسبائه حتى يسترضي زوجته الأولى صباح؛ حتى تعود إلى كنفه، وتعود إلى شقتها، واشترطوا عليه أن تكون هي سيدة الدار، وتكون لها اليد العليا في كل شئون الدار كما اعتادت أن تكون، فهي زوجته الأولى وأمُّ ولده.

وافَقَ خالد على كل شروطهم، وعادت صباح إلى شقتها لتعيش جنبًا إلى جنب مع بثينة صديقة الماضي الحميمة، وضُرة اليوم اللدودة، وبدأت صباح تدقُّ طبول الحرب بينها وبين بثينة، وتمكر بها، وتكيد لها المكائد، وبثينة تكبح جِماح نفسها، وتكظم غيظها، فيدُها هي السفلى، وهي الوحيدة المسئولة عن حياة الذل والمهانة التي تحياها.

كادت صباح تستحوذ على لُبِّ خالد بمعسول كلامها، وإغوائه واستمالته إلى جانبها، وإبعاده عن بثينة بكل ما تملك من وسائل، حتى أنها طلبت منه

أن تقوم بثينة بكل الأعمال المنزلية، وأن تكتفي صباح برعاية وليدها والتفرغ للتسرية عنه.

أصبح خالد عبدًا ذليلًا لصباح، يفعل لها كل ما يؤمر به، فكان لا ينفكُّ يهين بثينة، ويعايرها، ويتهمها بالعُهر والفجور أمام صباح.

وذات جمعة حين انتهت بثينة من تصبين ملابسها وملابس أهل الدار جميعًا، قامت بنشر الملابس حتى تجف، ثم دلفت بثينة إلى المطبخ لتعد طعام الغداء وهي متثاقلة تمسك ظهرها من شدة ما ألَمَّ بها من ألم لكثرة ما قامت بغسله من ملابس ومفروشات، وهي تُكابِد أوجاع الحمل وأعراضه.

قبيل عودة خالد من الحقل دلفت صباح إلى الشرفة، وهي تحمل مقصًّا في يدها وقطعت حبل الغسيل، فتهاوت جميع الملابس في تراب الشارع قبل أن تجف.

لم تكد تمضي لحظات حتى عاد خالد من الحقل، وقبل أن يدلف إلى الدار شاهَدَ ملابسه وملابس أهل الدار ومفروشاتهم منغمسة في التراب، فجمع جميع الملابس وصعد إلى شقته، فألقاها في وجه بثينة، وطلب منها أن تعيد تصبينها ونشرها.

أسرعت بثينة إلى الشُّرفة تتفقَّد موضع تمزُّق الحبل، ثم نظرت إلى صباح التي كانت تجلس على أريكة في الصالة بجوار باب الشرفة، وتمسك سكينًا في

يدها، وتُقشِّر برتقالة، وهي تغني بطريقة مبتذلة، وتفصِّص البرتقالة، وتضع فصًّا في فمها وفصًّا آخر في فم خالد، وهي تتلوى في ميوعة وتدلل.

استشاطت بثينة غضبًا وثارت حفيظتها، وذهبت إلى المطبخ، وأحضرت الملابس المبتلة المغموسة بالتراب، وقذفت بها في وجهي خالد وصباح، واتهمت صباح بأنها هي من قطعت حبل الغسيل عامدة مُتعمِّدة.

لطمها خالد على وجهها، ففقدت صوابها، وتعالى صراخها، فانهالت عليها صباح تُوسِعها ضربًا ولكمًا، وهي تصرخ، ففرت إلى الشرفة مكشوفة الرأس مشعثة منكوشة الشعر، تصرخ وتنتحب، ونادت أمَّها لتستنجد بها، فانقضت عليها صباح انقضاض الأسد على فريسته هي وزوجها.

تعمَّدت صباح أن تضربها على ظهرها، وتلكمها في بطنها، وأوسعاها ضربًا وانهالا عليها بقبيح الكلام والسباب.

لم يستطع أخوها أن يكظم غيظه، ولم تستطع أمُّه صبرًا، ورقَّ قلباهما لاستغاثات بثينة وصراخها، فركض حسن كالريح، واقتحم منزل خالد، فقد كانت أبوابه مفتوحة، وانقضَّ على خالد وصباح ليخلص أخته منهما، واشتبك بالأيدي مع خالد، وتبادلا القبضات واللكمات والسباب له ولأخته بثينة، والأمُّ تصرخ وتستنجد بالجيران.

كان خالد قوي البنيان، وأشدَّ صلابةً وقوةً من حسن، فدفعه على الأريكة، وظَلَّ يكيل له اللكمات، وهو جاثم فوق صدره. حاول حسن إزاحة خالد

من فوقه، فلم يستطع، وبينما يحرك ذراعه محاولًا دفعه عنه ارتطمت يده بالسكين الذي كانت صباح تقشر به البرتقال فأمسكه، وحاول أن يغمده في صدر خالد ليزيحه عن صدره، إلا أن الغلبة كانت للأقوى، فاستلَّ خالد السكين من يده، فحاول حسن استرداده منه، ومنعه من الوصول إليه، وبينما هما يتصارعان على الاستحواذ على السكين، تراخت يدا حسن، فانغمس السكين في قلبه.

جُنَّ جنون بثينة وأمُّها عندما شاهدا حسن غارقًا في دمائه، وظلتا تصرخان، وزاد الصخب والنحيب والعويل حتى تجمَّع جميعُ أهل الحارة، بعد أن فَرَّ خالد هاربًا.

ارتمت بثينة وأمُّها في أحضان حسن الذي كان ينزف بغزارة، ولم يكن هو وحده النازف، فقد كانت بثينة تنزف أيضًا، وأصبح جليًّا أنها أُجهضت، وفَقَدَتْ جنينها.

وصل صبحي إلى الحارة عائدًا من عمله قبل أن تتحرَّك عربة الإسعاف التي تحمل حسن وبثينة بدقائق معدودة.

كان صبحي في غاية الاندهاش والعجب عندما رأى تزاحُم الجيران وتدافُعهم واحتشادهم في الحارة، فظنَّ أن أحد أفراد الحارة مات أو ربما كان أحدهم مريضًا أو أصابه سوء... ولكنه فَطِنَ إلى أن الأمر يخصُّ أهل بيته، عندما شعر بنظرات الشفقة في عيون الناظرين إليه، وكان من بينهم عصام الذي ترقرقت عيناه بالدموع.

هلعَ صبحي وفزعَ، وتوجَّه نحو سيارة الإسعاف، فوجد زوجته في العربة تجلس شاردة الذهن مغيَّبة الوعي والإدراك بين حسن الغارق في دمِه، المطعون في قلبِه، وبين بثينة المطعونة في شرفها ومستقبلها ورحمها.

خارت قوى صبحي، ولم تقوَ قدماه على حَمْلِه، وهالَه المنظر المروع الذي لم يخطر له على بال، وارتمى على الأرض فافترشها، وأهال على رأسه تراب الحارة، فتجمَّع حوله رجال الحارة يواسونه ويخبرونه أن مشادَّة بسيطة حدثت بين حسن وزوج بثينة، وأن حسنًا سيكون بخير.

لم يُصدِّق صبحي ادِّعاءاتهم، وقال لهم بصوت مَن خارت قواه، واستشعر أنه خَسِرَ كل ما له في الدنيا:

- لا تخدعوني بكلامكم وتطمئنوني، فأنا أعلم جيدًا أن هذا عِقاب الله لي، فقد ارتبكت جُرمًا في حقِّ فتاةٍ شريفةٍ مسكينةٍ ذات مساء، وهذه عدالة السماء، هَتَكَ اللهُ عِرضي كما هتكتُ عِرضها، ودنسَ شرفي كما دنستُ شرفها وشرف أبيها وزوجها.

تحركت سيارة الإسعاف، ووقف صبحي وسط الشارع، والجميع منصت لكلماته، ولديهم فضول قاتل لسماع ما (يُهرتل) به، وظنَّ البعض أنه قد أصابه مسٌّ من الجنون من هول صدمته، ولكنه نظر إلى السماء مخاطبًا الله سبحانه وتعالى، متسائلًا:

– أنت العدل العادل يا الله، فلماذا لم تنتقم مني أنا؟ لماذا انتقمتَ من أولادي وهم لم يقترفوا إثمًا؟

استطرد مخاطبا السماء:

– هذا ذنب زهرة طليقة أحمد ... هذا ذنب زهرة التي تربَّصتُ بها، واغتصبتُها، وتسببتُ في طلاقها، وتدمير حياتها. رحمتك يا رب .. رحمتك يا رب.

كان عصام بين الحضور الذين سمعوا اعترافه بجُرمه، وتذكَّر كلمات الحاج عبده عندما كان في منزلة برفقة سالم، وأبدى تعاطُفًا شديدًا مع عصام في أثناء مشكلته مع بثينة، وقال له يومها جملةً تعجب لها حين قال له:

– إن ربك لبالمرصاد. يُمهل ولا يهمل.

تذكر عصام أيضًا كلمات زهرة اليائسة وقنوطها وجَلْدها ذاتها، وكلامها المبهم.

الفصل الأخير

مضى أسبوع، والقرية كلها لا يشغلها شاغل إلا الحديث عن اعترافات صبحي، وعن الظلم الذي تعرَّضت له زهرة سواء من صبحي أو من زوجها وأهله، وعن إبداع القدر في تصفية الحسابات، وتحقيق عدالة السماء، وانتقام المنتقم الجبار، وتيقُّن الجميع أن ما يفعله الإنسان لا بد أن يعود إليه يومًا ما، وأن الصبر على البلاء مطية لا تكبو أبدًا.

تساءل العديد من أهالي القريتين؛ قرية عصام، وقرية زهرة، عن السر أو صالح العمل الذي بين زهرة وبين ربِّها لينتقم لها ربُّها بهذا الشكل البديع، ويُظهِر براءتها وطُهرها بهذا الشكل الذي ردَّ لها كرامتها واعتبارها أمام تلك الحشود.

بفارغ الصبر انتظر عصام أسبوعًا بأكمله حتى تهدأ الأمور، ويعاود الكَرَّ والفر بينه وبين من ملكت عليه عقله وقلبه، فحبُّه لها كان كثير الشَّبه بحالة الحرب المليئة بالمناوشات.

بقلبٍ مفعم بالحب والشغف، قلبٍ ذاب وجدًا، وهام عِشقًا، ومات انتظارًا، واشتاق حدَّ الاحتراق، ذهب إليها عصام، وهو يحمل لها فوق حب جميع المحبين حبًّا، ذهب وقد أضناه الحنين إليها والشوق إلى بريق عينيها.

كان الربيع في مُستهلِّه، فبدا عصرًا مُشرقًا مشمسًا، تشبَّع هواؤه بعبق كل ما في حديقة زهرة من ورود، وفلٍّ، وياسمين، ورياحين فاحت روائحها الزاكيات.

دلف عصام إلى حديقة زهرة الغنَّاء، وكانت جالسة مع هناء، وجهها مُصوَّب نحو باب الدار، وظهرها نحو باب الحديقة، فلم تَرَهُ، ولكن هناء تبسَّمت عندما رأته فرفع إبهامه، ووضعها على فمه، ناهيًا هناء أن تُخبرها بقدومه.

امتثلت هناء لرغبته، فاقترب عصام حتى وقف خلف زهرة، وكان ممسكًا بوردة حمراء اقتطفها في أثناء مروره بالحديقة، فرفعها ومررها على خد زهرة التي قفزت من مكانها مرتعبةً.

قهقهت هناء، وهي تقف لترحِّب بعصام الذي وقف باسم الثغر، ضاحك السنِّ، مادًّا يده ليصافح زهرة التي أربكتها مباغتتُه إياها.

بيدٍ مرتعشةٍ مدَّت زهرة يدها إليه، فأطبق عليها، ووضع يده اليسرى فوق يُمناها، فحاولت جذب يدها من بين يديه، فلم تتمكن.

تنحنحت هناء وقالت وهي مبتسمة:

- نحن هنا.

توردت وجنتا زهرة خجلًا وحياءً، وسحبت يدها فأفلتها عصام:

- سأجلب لكَ شرابًا ساخنًا.

قالت هناء وهي تتجه نحو الدار لتفسح لهما مجالًا لتبادل الحديث بحرية.

جلس عصام، وأشار بيده إلى زهرة فجلست أمامه. نظر عصام إلى عينيها، وهو يقول لها بصوت مَن غلبه حنينه وهزمه اشتياقُه:

- بقلبٍ هشٍّ، ونفسٍ مبعثرة جئتُ إليك يا زهرة. أنا الآن عالق بين الوجود والعدم، بين اليأس والرجاء، بين القنوط والأمل، بين الحياة والموت. لا تكوني قاسية، أرجوكِ يا زهرة، فقد أصبحتِ بالنسبة لي قطرة غيث مشتهاة بعد ألف عام من العطش والجفاف والجدب.

أنا والله ما فقدتُ الثقة بك، ولا الإيمان بنُبلك وطُهرك ونقائك، وما مللتُ انتظارك قط، و لا فقدتُ الأمل في اللقاء .. لست أعلم تحديدًا ما هو أكثر ما شدَّني إليكِ أهو سحر خاصٌّ بكِ أم الحزن الذي اعتدتُ أن أراه متوغلًا في عينيك، أو ربما يكون تشابُه أحداث معينة مررنا بها، فكلانا تم اتهامه وتعرُّضه للظلم، وكنت أنا كسير الكبرياء، وكنتِ أنتِ كسيرة القلب.

أكررها مرة أخرى، انفضي عنكِ غبار الماضي، وانظري إلى الأمام .. الدنيا كلها تفتح لكِ ذراعيها، وأنا أمدُّ يدي إليكِ فلا ترديها.

رقراقة تسللت دموعها على خَدِّها، فمدَّ يديه يمسح دموعها المتساقطة.

بصوتٍ مرتعش قالت له:

– عبثًا تحاول كفكفة دموعي يا عصام، فما تعرَّضت له لم يكن هينًا، وليس من اليسير على أي رجل أن يقبل الزواج بامرأةٍ تم اغتصابها.

مطمئنًا إياها، خاطبها عصام:

– الحب والكبرياء لا يلتقيان أبدًا يا زهرة، وليس من الإنصاف أن يتم جلدك لكونك ضحية يومًا ما، ويكفيك فخرًا أنك قاومتِ ولم تستسلمي رغم ضعفك، ولكنه كان ابتلاء لكِ من الله – عز وجل – ليختبر صبرك وجَلَدَك.

بنبرة يملؤها الرضا قالت زهرة:

– الحمد لله على كل شيء، فقد رضيتُ بقدري، وربما تكون بردت نار نفسي حين سمعت عن انتقام الله لي من صبحي، ورغم مرارة التجربة وقسوتها، فقد صهرت روحي، وأعادت صياغة الكثير والكثير من مكنونات نفسي، وثوابتها، ولقَّنتني دروسًا عديدة.. فكم اشتهيتُ أشياء كثيرة في حياتي!

وكم رغبت وتمنيت وجود أشياء وأشخاص! وحزنت كثيرًا لافتقادي تلك الأشياء وهؤلاء الأشخاص، وعانيت وَجَعَ الفقد أحيانًا، وانكسار الاحتياج أحيانًا أخرى، وما بين انكسار الروح وانحسار الأحلام أيقنتُ أن الأيام تمضي للأمام، ولا تتوقف عند أشخاص بعينهم، ولا عند أحداث معينة مهما تعظم. بدأتُ أرى الدنيا بطريقةٍ مختلفة، ومن منظور مختلف. أدركُ جيدًا الآن كم كان تفكيري محدودًا! وأن الخير كان يكمن فيما اعتقدته شرًّا، وأن الله ما أبعدَ عني أمورًا بعينها ولا جنَّبني أشخاصًا بعينهم إلا ليبعد عني شرًّا مستطيرًا، وكم حمدتُ الله أنه كان بي بصيرًا رحيمًا، وأنه أحاط علمًا بحالي، واختار لي ما هو خير لي، حتى لو لم أستوعب ذلك إلا بعد فترة طويلة.

استطردت زهرة:

- أحيانًا قد تمتلك من الرحمة المقدار الكافي الذي يجعلك تُشفق على قاتلك، وقد أشفقت على صبحي وأسرته؛ لأن عدالة الله وقصاصه فاقًا قدرتي البشرية على التخيُّل.

سألها عصام:

- هل معنى هذا أنك نفضتي عنك غبار الماضي بكل ما فيه من أحداث وأشخاص؟

ردَّت زهرة:

– لا أتسوَّل الحب، ولا أبكي على فراق من أراد الرحيل، كنت فقط أرتجي شعورًا ظننته موجودًا .. ظننته قويًّا عفيًّا، وللأسف هذا الشعور لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا بين طرفين، كلاهما متمسك ومتشبث بالقوة نفسها.. ومنذ تخليت عن تشبثي بكل من لا يتشبث بي، وأنا أكثر قربًا من نفسي، وأكثر تشبثًا وتمسكًا بذاتي، فهي الأولى بالتعلق والتشبث، وعدم التخلي.. مهما تتظاهر بالحب حد التفاني، ومهما تتجاوز حدود المحبين حبًّا، فلن تحب كائنًا كان أكثر من نفسك، فأكرم نفسك بحب من يحبها، ومن زادها حبًّا زدْهُ حبًّا وولهًا وعشقًا وشغفًا أضعافا وأضعافًا، فالطمع في الحب من فضائل المحبين. إذا كان جزاء الإحسان المزيد من الإحسان، فلا أجد أفضل من الحب إحسانًا، ولا أجد له جزاء إلا المزيد والمزيد من الحب.

تهلَّل وجه عصام لسماع حديثها الذي بعث الطمأنينة في نفسه، وقال لها مداعبًا:

– معنى حديثك هذا أنك الآن تعشقينني؛ لأنني أكثر الناس لك حبًّا وعشقًا.

بملامح ونظرات جادة سألته زهرة:

– لماذا أنا يا عصام؟ لماذا أنا وقد علمت كل شيء؟ لماذا تقبل أن تتزوج بامرأة مغتصبة منتهكة الجسد؟ لا أقبل أن تتأذى يومًا بسببي، أو بسبب ما تعرضتُ له، فكيف تقبل ما رفضه من كان زوجي يومًا ما؟

بعينين تحتويانها أجابها:

– تختلف ردود أفعال الناس يا زهرة وقناعاتهم، وأنا لا أُسأل إلا عن نفسي، ولا شأن لي بغيري. لا أبغي سواكِ، ولا أرضى عنكِ بديلًا، ولا يعنيني الناس، ولا تعنيني أحاديثهم السخيفة.

استطرد عصام:

– أليس حبي لك يا زهرة كافيًا لتخطي كل ما فات وتجاوزه؟ أجيبيني يا زهرة أرجوك، فقد سئمتُ تلعثمك وتردُّدَكِ.

بلغت زهرة من النضج العاطفي ما يجعلها تعلم جيدًا أن للقلوب حسابات أخرى، ومنطق آخر، ليس فيه من المنطق شيء.

بنظرات شاردة متحيرة ومتلعثمة نظرت زهرة إلى عصام، ولسان حالها يقول له بنظراتها دون صوتها:

– لا شيء يشبه الحب في عبثيته، وفي غموضه، وفي كونه لغزًا محيِّرًا، فمن بين كل رجال العالم كله، تكون أنت، وأنت دون غيرك يا عصام، فهل يوجد عبث ومباغتة وتحدٍّ وألم وإيلام وحيرة وتصارُع أكثر من ذلك؟!

– ألن تندم يومًا يا عصام على قرار الارتباط بي؟

سألته زهرة وهي تنظر إلى الأفق البعيد كأنها تحاول قراءة ما هو آتٍ قبل أن يأتيها ردُّه.

وبينما تدير رأسها ناحيته، تنسمت الريح، فطار عنها وشاحها، فهرول عصام ولحق به، واشتمَّ رائحتها فيه، وطبع فوقه قُبلة حانية قبل أن يعطيها إياه، فتبسمت فزاد وجهها إشراقًا وبهاء، فقال لها:

- نسيم عليل، وروح بريئة، ووجه جميل لا أرضى دونه بديلًا. أنتِ للروح روح يا زهرة، فكيف أندم على ارتباطي بكِ، وأنت مصدر سعادتي، وسبب بهجتي.

قرِّي عينًا، وطيبي نفسًا يا زهرة، فأنا على أهبة الاستعداد أن أحارب العالم كله من أجلك إذا استدعى الأمر ذلك. منذ أن رأيتُك يا زهرة وأنا لا أعلم ما الذي اعتراني، وفي جحيم عشقك رماني! فما أسعدني إن عني رضيتِ، وإن لم ترضي عني فما أشقاني!

أنت يا زهرة يا من لا تشبهك امرأة، وتعجز أن تصفك حروف اللغة، وأن يحتويك زمان .. أنت وحدك سيدة كل العصور، وسيدة جميع النساء.

أحبك يا زهرة، يا مليكة قلبي حبًّا تجاوز المدى، وتخطّى حدود الكبرياء.

اعلمي يا زهرة أنني كنتُ - وما زلت - وسأظل حالمًا هائمًا أحيا على أمل اللقاء، ولن أستسلم أبدًا حتى أنال وصلك وأستحوذ على حبك.

تنفَّست زهرة الصعداء، فهذا ما كانت تتوق لسماعه، وتبتغي التيقن منه.

باغتته زهرة بقولها:

– هل تصدقني يا عصام لو أخبرتك أنني قرأتُ رسائلك مئات بل آلاف المرات، فقد كان عبير الحب يفوح بين حروفك وسطورك! كنت أتلمس حروفك كما يتلمس الغريق نجاته.

رسائلك تلك التي أعادتني إلى ذاتي، وجعلتني أتصالح مع الدنيا، ولا أضع كل الرجال في كِفَة واحدة، فليسوا جميعهم سواء، وتعلمت منك أن سهم المحب لا يؤلم، ورصاصته لا تُردي، فلو كان محبًّا ما أطلق سهمًا، ولو كان محبًّا ما أطلق رصاصة.

هل تعلم أن جل ما أتمناه الآن أن يصاب قلبي بمرض الزهايمر حتى ينسى كل ما مضى، ولا أتذكر إلا وجهك وابتسامتك، ولا أريد من الدنيا إلا قربك وصحبتك لأني حقًّا...

تصمت وتنظر إلى الأرض في حياء، يمدُّ يده إليها باسمًا ممسكًا ذقنها، رافعًا وجهها لوجهه متسائلًا:

– لأنك ماذا؟ انطقي .. أستحلفك بالله أن تنطقي، وانفضي عنك رداء الخجل أو الوجل؛ فأنا لسماعها منك في عجلٍ، فقوليها.

قالت وهي تتلعثم وتتعثر:

– أنا ... أنا ... أحبُّك.

ضحك عصام مقهقهًا مداعبًا:

– الحمد لله، أخيرًا نطق أبو الهول وتحققت المعجزة.

نظر إليها عصام بعينين تذوبان عشقًا، وأمسك يديها فقبلهما:

– أنت يا زهرة زهرتي، وفُلتي، وريحانتي، وياسمينتي. أنت من سأكتفي بك، يا من تجمَّع فيك بهاء كل الزهور ونقائها، وعبق كل العطور. يا مَن جعلتِ حياتي القاحلة تزهر، وصحراء عمري تنضر وتثمر. أنت يا من انصهر قلبي بين يديك، وذاب فؤادي على باب شفتيك.

كان لكلمات عصام وقع السحر عليها، فزاد بريق عينيها بريقًا ولمعانًا، وتوهَّجت وجنتاها اشتعالًا، فازداد وجهها بهاء وجمالًا.

قالت له بعينين تحتضنانه:

– لقد ظننتُ أن قلبي يبسَ، وأصابه العطبُ، لكنه معك وبك أصبح يافعًا بالحب، نابضًا، وفي محرابك خاشعًا متضرعًا.

فرح عبده وأهل بيته أشد الفرح لموافقة زهرة على الاقتران بعصام، و اتفقوا أن يتم الزفاف بعد شهر من إعلان الخطبة، واقترح عبده عدم الإسراف بشأن إقامة حفل الزفاف، والاكتفاء بحفل بسيط يقتصر على الأقارب وبعض الجيران.

رفض عصام اقتراح عبده، وأصرَّ على إقامة حفل زفاف ضخم بهيج، وإقامة وليمة ضخمة يدعو إليها معظم أهل قريته وقرية زهرة.

كان عصام رجلًا اجتمعت به كل النكهات، وامتزجت بخلاياه كل ما تتمناه المرأة في رجلها من صفاتٍ، فهو الرجل القوي المحب .. المخلص،

والصديق الوفي، والأب العطوف الحنون، فذابت به وجدًا، وهامت به عشقًا، وباتَ رغبتها الأولى، وأمنيتها الأخيرة، وكما صارت هي أيقونته أصبحت زهرة أسيرته.

كان يوم الحناء، فزيَّنَ أهلُ العريس منزله، وزيَّنوا الشارع بأكمله، ورصُّوا الكراسي والمناضد استعدادًا لاستقبال المهنئين والمباركين من أصدقاء العريس وجيرانه وأفراد عائلته.

بدأ طباخ القرية منذ الصباح بإعداد وليمة الغداء للمدعوين، وكان قد بدأ بتقطيع اللحم بعد أن ذبح جزار الحارة بقرة سمينة، وبدأ في طهو الطعام منذ عصر ليلة الحنة حتى يكون الطعام جاهزًا للتقديم في الصباح الباكر، صباح يوم الدخلة، وتستمر الوليمة حتى عصر يوم الزفاف.

وبعد صلاة العصر، وانتهاء طقوس تناول الغداء تزايَد توافُد المهنئين، وبدأ رهطٌ كبير من الرجال الرقص بالعصا والخيل على أنغام الربابة والمزمار البلدي.

وفي المساء، أُقيم حفل كبير في الهواء الطلق، في مكانٍ فسيحٍ أمام منزل عصام حضرها المئات من قرية عصام، وقرية زهرة، وجاءت فرقةً استعراضية من الشباب من مدينة الإسكندرية لتحيي ليلة الزفاف، وتزف العروسين.

جلس العروسان في "الكوشة " يغمرهما الحب، ويفيض وجهاهما بشرًا وأملًا وسرورًا، وزاد بهجتهما ما لمساه من ودٍّ وحبٍّ ورغباتٍ صادقة في المجاملة من الأهل والجيران.

كان العروسان يتهامسان طوال الحفل، ويتبادلان النظرات الحانية التي يملؤها الاشتياق الذي فاقت حرارته لهيب الجمر.

جذب عصام يُمنى زهرة ورفعها إلى شفتيه، وقبَّلها أكثر من مرة، فانشرح صدر زهرة، وتراقَص قلبُها بين ضلوعه، وبحركة لا إرادية وجدت نفسها تجذب يده بيدها، وتجذب يده الثانية، وتفتح يديه، وهو في عجب من ردة فعلها، وتحول عجبه إلى رضا وسعادة غامرة حين قبَّلت راحتيه بشغفٍ وحنانٍ أمام هذا الجمع الكبير من المدعوين.

انتهى الحفل وسط أجواء سعيدة مبهجة، وتحرَّك العروسان ليصعدا إلى عُشهما السعيد، وتأبطت زهرة ذراع عصام، وسارت معه، وبينما يُودِّعها أهلُها وأصدقاؤها بقبلاتهم الحارة، اصطدمت عيناها بعينين تعرفهما جيدًا.. إنه أحمد، كان يقف منزويًا في ركن بعيد عن الأنظار خلف شجرة يسترق النظر إليها عابس الوجه، كئيب المنظر، وكانت هذه المرأة الأولى التي تراه فيها بعد زيارتها له عند شجرة الجميز العتيقة.

أشاحت زهرة بوجهها عنه، ونظرت إلى زوجها، وقد تضخمت ابتسامتُها، فأحكمت قبضتها على ذراعه بكلتا ذراعيها.

كانت أشواقهما كحُمم بركانية ثائرة، هدأت قليلًا حين اشتعل الهوى والتهب، ثم فاض وانسكب.

مع زقزقة العصافير وأهازيج الحب التي تترنَّم بها السماء، فتح عصام عينيه ليجد زهرة باسمة الثغر، مشرقة الوجه، تمسك يده، وتُقبِّلها، وتُقبِّل جبهته وشعره، فأمسك أصابعها وقبَّلها، وجذبها فضمهَّا بشدة إلى صدره وقال لها:

– أحبُّك وأشتهي كل ما يتعلق بك وأعشقه.

قالت له:

– لقد أصبحتَ قُرة عيني، ونديم روحي، ويكفي أنك انتشلتني مما علق بي من أوحال، فلم تعد محض عابر صادفته في رحلتي وطريقي، بل أصبحت قاطنًا لروحي، عابرًا في دمي، متوغلًا في أعماقي، وبين جنباتي، تمنيتُ من زمن أن تكون أنت من يمحو خيباتي، ويحول عذاباتي وعثراتي إلى حُسن ظنٍّ، وتفاؤل بما هو آتٍ. فقذف الله حبَّك في قلبي، وأراد أن يشدَّ بكَ عضدي بعد أن أضناني المسير، وأشقاني القدر. كنتَ أنتَ نهايتي السعيدة وفرحة العمر. كنتَ الحلم الذي هفت إليه روحي، فاستوطن بين الجوارح في لمح البصر.

هل كان عصام صَكَّ الغفران الذي جادت به الدنيا عليها؟ هل كان قلبه الكبير الحاني هدية السماء لها؟ هل كان عوضًا لها؟ هل كان ملاذها الآمن والأخير؟ هل كان هو استجابة السماء لفيض ما فاضت به روحُها من دعاء؟

نعم وألف نعم، فقد استطاع أن يجمع أشلاء قلبها- ويُرمِّم أنقاض روحها، ولم يقف مترددًا متلعثمًا على أعتاب قلبها وروحها، بل اجتاح كل جوارحها كإعصار.

وحقًّا، كان لها فيض دعاء أمِّها وجدتها وأبيها، ومناجاتها ربَّها، والناس نيام. استعادت به ومعه حياتها مرة ثانية، فكان لها كبعث بعد الموت، ومع إقبالها عليها أقبلت معه كل ملذات الدنيا، فذهب الألم، وبدأت الحياة.